مطبوعات مكتبة مصر

خشوع

ثروت أباظة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

إهـداء

لا إلٰـه إلا الله محمد رسول الله

كلمة حق

إلى زوجتى أم أمينة ودسوقى .

هذه روايتى العشرون أقدمها فكأنى أقدمها إلى نفسى . فقد كنت لى على مدى أربعين عاما أمنًا عند الجـزع . وحصناً عند الضائقة . وسكينةً عند الروع .وحبا لا يخالطه منّ . ووحيا كأنه نور من السماء . وحدبا إذا تجهـمت الدنيا . وإشفاقا حين تنبت الأشواك فى الطريق ، وكم مرت بنا من الأيام أشواك فكنت أنت الورود فيها . وكم لقينا من الحياة ظمأ فكنت أنت الوِرد الصافى والماء الطهور .

إليك بجانبى كل دعائى إلى الله أن يمد فى عمرك ، لتكونى لى ولابنتك ولابنك الحياة التى لا حياة لنا إلا بها ، فثلاثتنا يشعر عن يقين أنه هو أنت ، وحسبنا أن نكون نحن أنت .

ثروت

١

المركز فى مصر شأنه عجيب .. فلا هو مدينة تكتمل له عناصر المدينة جميعا .. ولا هو قرية ترين على جنباته أجواء القرى التى يعرفها ريف مصر منذ فجر التاريخ ..

المركز مدينة صغيرة أو قرية مكبرة يجمع بين الحاضرة والريف ، فى تناسق عجيب ..

فأنت تجد فى المركز دارا للسينما ، أو ربما دارين أو ثلاثا أحيانا ..

وفى المركز أطباء كثيرون قد يزيدون أو يقلون عن العشرة ، ولكنهم دائما متعددون .. وقد تجد بل إنك كثيرا ما تجد أطباء متخصصين .. وبالمركز دكاكين كثيرة لبيع الفاكهة ، الأمر الذى لا تجده فى القرية مطلقا ، ودكاكين أخرى لبيع الملابس .. بل إنك فى إجمالة تنأى بنا عن التفصيل تستطيع أن تشترى ما شئت فى المركز ، لا أستثنى من ذلك التليفزيون ، بل والفيديو أحيانا إن لم تجده فى الحال وجدت من يشتريه لك فى ساعات من الفرع الرئيسى الذى يمثله هو فى المركز ..

وللمركز محكمة لها قضاتها ونيابتها وجميع الموظفين الذين تحتاج إليهم المحكمة . أما الشرطة فأنت واجد لا شك قسما لها يرأسه مأمور بأكمله ، مع مساعديه من الضباط وما يليهم فى المرتبة ..

وبالمركز أكثر من ناد ، منها الرياضى ومنها الاجتماعى .. وربما يكون هناك ناد معين هو أهمها ولكنه لا يلغى الآخرين .. وبالمركز أكثر من محام .

مدينة مصغرة هو المركز .. وناسه يعرفون بعضهم البعض ، وهو فى هذا يقترب إلى القرية .. وينأى بعض الشىء عن المدينة ..

فى مركز من مراكز مصر يقيم الرجل الطيب عبد الهادى النقيب .. ومركز المهدية الذى يقيم فيه من أهم مراكز مديرية الشرقية .. وقد جاء عبد الهادى نفسه فى المهدية وهو يعلم أن أباه وجدَّه كانا يعيشان بها ..

وكان عبد الهادى النقيب من أعيان المهدية ومن أحب أعيانها إلى ناسها .. وما اختلف قوم فيما بينهم أو وقع خلاف بين أسرتين إلا كان عبد الهادى هو أول من يتجه إليه المختلفون ، يرجون عنده الرأى السديد والعقل الراجح والبعد عن الهوى والحفاظ على العدل ..

فما كان عجيبا أن أصبح عبد الهادى فى نفوس أهل المهدية رئيسا

للقوم .. وقد تولى منصبه هذا دون تعيين وبغير انتخابات .. هو هكذا فى القلوب دون أى قرار رسمى .. ويعلم الله أن كثيرا من أصحاب الرئاسة الرسمية يتمنّى أن يصل إلى هذه الرئاسة المضمرة المتمكنة من القلوب ، ويهون عنده حينئذ كل المراسيم والقرارات والأوامر التى نصبته رئيسا رسميا ذا تاج وكرسى عرش وحرس وخدام وضجيج وعجيج وصراخ ، لا يدرى أحد مدى الحق فى شأنها .

أما رئاسة القلوب المضمرة فهى رئاسة لا شك فى أمرها ، أثبتها كل فرد من أفراد الشعب فى نفسه .. وأصبح فى غير حاجة أن يعلن عنها ..

كذلك كان عبد الهادى وهكذا نفى الله عنه أبهة الرئاسة المظهرية .. فلا هو صاحب غرور ولا تكبر .. وما لرئاسته مراسم مظهرية ولا طبل ولا زمر .. وربما كان لا يدرى أن الناس يتخذونه فى نفوسهم رئيسا لهم ، ولكنه — لا شك — كان يعرف أن الناس يحبونه لأنه كان على ثقة أنه يحب الناس ، ويسعد أن يقيل عثرة من أنزل الدهر به عثرة .. ويهنأ أن يمد من احتاج بحاجته ، وتملأ نفسه البهجة إن وقف بجانب أسرة كانت ذات عزة وكرامة وأراد الدهر أن يعدو عليها ..

كانت دار عبد الهادى موئلا لمن حاولت الحياة أن تزعزع مستقرهم ، يجدون فيها النفس الراضية تسمع وتواسى .. ويجدون إلى جانب الكلمة العادلة كرم المال والنفس يقدمه عبد الهادى مما حباه الله

به من مال .. وقد كان غنى عبد الهادى غنى واسعا ، ولكن الناس أحبت له هذا الغنى لأنه كان يعتبر ماله مال كل محتاج وكل أخ فى الإنسانية حزبته من الحياة ضائقة ..

وكان عبد الهادى أيضا لا يبخل بجهده عند الشدة .. فإن له فى أعيان مصر صلات وصداقات ، وما تأخر يوما عن سعى حثيث فى سبيل خير أو بعض خير قد يعود على قاصده ..

وكان أخو عبد الهادى أصغر منه بسنوات عديدة ، وكان منه بمثابة الابن تماما . فإن عبد الهادى فقد أمه وهو يقارب العشرين من عمره ، وكان أبوه الحاج رافع النقيب فى الخمسين من عمره فتزوج بعد وفاة أم عبد الهادى بعامين ، واختار لنفسه عروسا من أسرة النوافعة توفى عنها زوجها وهى فى الثانية والثلاثين من عمرها . ولم يمتد زواجها الأول بما يسمح لها أن تهب الحياة أبناء .. فحين تزوج منها الحاج رافع وهبت له عبد الوارث بعد سنتين من زواجهما ..

وهكذا كان عبد الهادى بمثابة الوالد لعبد الوارث ، وقد كان الحاج رافع يمزح دائما وهو يقول : عبد الهادى أخذ منى عبد الوارث فأنا لا أعرف من شأنه شيئا ، هو الذى يرعاه .. لعل هذا يقنعه أن له ابنا ما دام قد مضى على زواجه سنتان ولم ينجب ..

وقد كان عدم إنجاب عبد الهادى هو الغصة التى يشقى بها عبد الهادى .. فقد كان كل أمله أن ينجب ، وكان يقول لأصدقائه .. الأبناء للآباء حياة أخرى وإن كانوا يأكلون الحياة الأولى . أرى جزع الآباء على بنيهم فأكاد أحمد الله أن ليس لى بنون ، ولكننى ما ألبث أن أتمنى أن أصاب بهذا الجزع ، وأن أظل على ولدى ملهوفا لهفة كفيلة أن تمحو كل سعادة فى حياتى ، ولكنها فى ذاتها سعادة لا تعدلها سعادات العالم أجمع ..

كان يقول لأصدقائه ..

إننى أتمنى أن أرى بنفسى ولدى ، ولن أحاول أن أتظاهر بالرضى أننى لم أنجب .. لا ، أنا أريد أن أنجب مهما يكن فى الإنجاب من رعب يتولى الأب نحو بنيه ، ومهما يكن فى الإنجاب من إنفاق للصحة والمال .. ومهما يكن الابن مجلبة للقلق يتولى الأب بين أمل يهفو إليه وحقيقة تطالعه . وذعر يتولاه أن يصاب ابنه بمكروه مهما يكن هينا هذا المكروه .. أريد أن أنجب مع علمى بالهلع الذى يتولى الآباء على أبنائهم .. إن هذا الهلع عندى سعادة .. ويل للأب إن أصيب الابن بجرح .. وما أعظم الهول الذى يلقاه الأب إذا قدر الله عليه أن يوارى ابنه التراب .. ولكنى ومع علمى بكل هذه الأهوال أريد ابنا .

حين مات الحاج رافع كان عبد الوارث فى الثامنة من عمره .. فكان عبد الهادى منذ هذه السن الباكرة بمثابة الأب له ..

ولكن ليس فى العالم إنسان يستطيع أن يكون مكان الأب مطلقا .. كان عبد الهادى يخشى أن يقسو على أخيه لأنه ليس ابنه .. والأبوة تحتاج رغم أنفها إلى بعض القسوة فى كثير من الأحيان .. وهكذا لم يكن غريبا أن يتعثر عبد الوارث فى الدراسة ، ولا يستطيع عبد الهادى إزاءه إلا أن يعنفه تعنيفا هينا لم يصل إلى الشدة قط ..

ولم يتسلم عبد الوارث ميراثه عن أبيه ولم يكن قليلا ، ولكن عبد الهادى قام على هذا الميراث خير قيام وراح ينميه لحساب أخيه ، ورفض أن يحتسب من ميراث أخيه مأكله وملبسه مرتئيا أن هذا واجب عليه حتى وإن كان الأخ غنيا ..

وكان الحاج رافع حين تزوج فائقة أم عبد الوارث رأى أن يرضى ابنه الأكبر بعمارتين باعهما له وسجلهما باسمه .. ولم يكن عبد الهادى محتاجا لهاتين العمارتين حتى يرضى ، فلم يكن غاضبا حتى يحتاج إلى إرضاء ..

* * *

نذر عبد الهادى أن يقيم مسجدا لوجه الله إذا استجاب الله دعاءه ومن عليه بمولود .. وإن للسماء أسرارها .. وحملت زوجته

حميدة .. وقبل أن تلد كان عبد الهادى قد بدأ يضع الأساس للمسجد وهو يقول إنه مسجد لله ، وسواء عندى إن تمت الولادة أم لم تتم .. قد نذرت أن أبنيه إن أنجبت وقد أخطأت ، فإن علىّ ما دمت قادرا أن ابنيه أنجبت أو لم أنجب ..

وحين قدم إبراهيم عبد الهادى النقيب كان المسجد قد تم بناؤه ، وأقيمت الأفراح خيرات على الفقراء والمعوزين .

وقرت عينا عبد الهادى واطمأن قلب حميدة .. واكتملت فى البيت سعادة كانت ناقصة وأذن لها الله أن تكتمل .

* * *

شب إبراهيم فتيا بهى الطلعة مكتمل الرجولة زكى الفؤاد ، فى سمته عند الناس قبول . لا يراه الرائى إلا انشرح قلبه لمرآه ، على فمه ابتسامة كأنها بطاقة من الحب تركها محب هناك عن عمد .. وفى جبهته إشعاعة سلام كأنها دعوة ود لا كدر فيها ولا مغاضبة ..

وأجمع الناس على حبه مع أن الناس لا تجمع على شىء ..

ناس المهدية مثلهم مثل سائر الناس فيهم الطيب الشريف وبينهم المجرم الخبيث .. والخير فى حياتنا نادر والشر على الناس غالب ، ولكن ليس هناك إنسان كل ما فيه شر . وحتى أهل الطيبة والورع قد تجد جانبا منهم لا يرضيك ، فإنه لا كمال إلا لنبى ..

كان أهل الخير وأهل الشر جميعهم يحبون إبراهيم .. لأنه كان لا يتيح فرصة لأحد أن يتصل به إلا بالحب ..

شخصية توشك أن تكون بعيدة عن أبناء الحياة كان إبراهيم ..

وكان طبيعيا أن يكون عند أبيه أغلى من الحياة .. وكم كان عجيبا أم لعله لم يكن عجيبا أن كتب عبد الهادى لابنه ماله جميعا وإبراهيم بعد فى المدرسة الابتدائية ، ولم يعبأ بقول الناصحين أن يتريث ربما رزق بعد ذلك بابن آخر أو بابنة .. لم يتصور أنه وقد ظل كل هذه السنوات بغير إنجاب أن ينجب بعد إبراهيم أخا أو أختا ..

وكم كان عجيبا .. أم لعله لم يكن عجيبا أن قال عبد الهادى لابنه :

— أريد منك شيئا ولا تعارضنى ..

— أنا لم أعارضك فى حياتى ..

— أعرف ذلك ..

— أنا لن أخرج عن أمر لك أبدا ..

— مهما يكن غريبا ؟

— لقد أسميتنى إبراهيم تيمنا بأبى الأنبياء ، فاعتبرنى بالنسبة إليك إسماعيل الذى امتحن الله فيه أباه ، وحين قال لابنه إنى أرى كأنى أذبحك ... قال يا أبتى افعل ما تؤمر .. وأنا أقول لك أنا فاعل

ما تأمر ..

ـــ تزوج .

ـــ أتزوج أمرك نفاذ ، ولكن ماذا يقول الناس عن تلميذ فى المدرسة الثانوية يتزوج ؟..

ـــ يقول رأى أبوه نقاءه وطهره وأراد أن يعصمه ..

ـــ هل اخترت لى العروس ؟..

ـــ إذا لم تخترها أنت سأختارها أنا لك ..

ـــ أحتاج إلى مهلة ..

ـــ هل تطول ؟..

ـــ لا ، ما أظنها ستطول يا أبى ..

ـــ أرأيت أنى على حق .. إذن فإن قلبك كانت له نبضة بذاتها نحو فتاة بعينها ..

ـــ كنت أكتم النبضة لا تذيع .. وهل كنت أتصور أنك ستأمرنى بهذا الأمر ؟..

ـــ وها أنذا أمرت ففيم المهلة ؟..

ـــ لا بد للنبضة من نبضة تقابلها . أريد أن أسمعها فإذا سمعتها من بعيد أجبتك .

ـــ وكيف لك أن تسمعها وأنت عنها بعيد ؟..

— للشباب نظرة يسمع بها ، ولنا عند اللقاءات غير المدبرة ملامح نعرفها .. تنبئ ولا تفصح وتقول ولا تنطق .

— كنت شابا أنا أيضا ..

— ربما تكون قد نسيت .

— هذه الخلجات لا تنسى .. وتريد مهلة ؟

— ولن تطول .

— وأنا أنتظرها فى لهفة .

— أرجو الله يا أبى أن يجعلنى لك دائما مصدر سعادة ، لا يشوبها شائبة .

— إذن عجل .

— قبل أن تشعر بالضيق سيكون جوابى عندك ..

— موفق يا ولدى إن شاء الله .

— ببركة دعائك يا خير أب .

* * *

شاب هو ، له خفقات الشباب وأحلامه وآماله ورؤاه... وله أيضا الصديق الذى يشعر نحوه بوشائج ألفة وتربطه به أخلاق متجانسة متقاربة .. يسعد إذا جلس إليه .. ولهما بينهما همس وآراء وأفكار حتى كأنهما يصدران فى آرائهما عن مصدر واحد توحد معينه ، وتمازجت الأمواء فيه صادرة وواردة .

وقد كانت هذه هى الصداقة التى تجمع إبراهيم بعبد الواحد الزيادى بن الشيخ مأمون الزيادى رجل الدين الذى اختاره أبوه ليكون إمام الجامع الذى بناه . وعبد الواحد زميل إبراهيم فى المدرسة منذ اليوم الأول لبدء دراستهما .. وتعود الأصدقاء أن يروا الصديقين متلازمين .

ولعبد الواحد أخت تصغر أخاها بعام واحد هى روحية .. يحس إبراهيم نحوها وجيبا كان يعذبه عذابا يعرفه الشباب الذى يحب ، والذى يعلم أن حبه لن يصل به إلى الأمل المنشود . إلا أن عذاب إبراهيم كان يزيد عن ذلك ، فقد كان يضاعف ألمه شعوره أنه يخون صديق عمره ونجى نفسه بهذا الحب ، وكان يلوم نفسه أشد اللوم : كيف تحبين أخت صديقك وأنت تعلمين أنه ليس إلى زواج من سبيل ؟ وكيف تحتملين أيتها النفس الخاطئة أن يكون هناك لك سر لا تجرؤين على الإفضاء به إلى عبد الواحد ؟. لولا علمك أنه سر لا يقال ما حبسته عنه ، ولأبحته له مثل كل ما فيك من أسرار وأفكار وآراء .

ويل للناس من أنفسهم ! كان كل من يرى إبراهيم يحسب أنه المثل الأعلى للسعادة ، والناس لا ترى إلا ظاهر الأمور ، أو هى فى الحق لا تحب أن ترى إلا ظاهر الأمور . وليس لها شأن بخفايا النفوس

وحنايا الحياة وما يستره كيان الإنسان المغلق كأنه جدران سميكة ترد العيون أن تتلصص إلى الداخل .. وكان إبراهيم يزلزل بين السعادة والشقاء وهو يرى فى عيون روحية تحية لعيونه التى تشع بما يكنه قلبه لها ، وما يدرى أخير ذاك أم شر .

مسكين إبراهيم فقد كانت صداقته بعبد الواحد تكاد تدمره ، حتى لقد كان خليقا أن ينزع حب روحية من فؤاده لو أن للإنسان على فؤاده سيطرة أو سلطان ..

ولكن هيهات ..

هذا قدرى وهذا عذابى أن شاء الله أن يكون من حبى وهو طهور ، وكان حريا أن يكون سعادتى ومن صداقتى وهى أمينة صادقة ..

حين طالعه أبوه برغبته فى التعجيل بزواجه ، كان عقله وقلبه وكيانه لا يعزفون إلا كلمة واحدة ..

ولو أن عزف القلوب والعقول والجوانح له صوت حتى وإن كان هامسا ، لسمع عبد الهادى اسم روحية تردده كل خلجة وخلية فى أحناء ابنه إبراهيم .

لهذا لم يكن عجيبا أن ينصرف إبراهيم عن أبيه وسعادة الدنيا جميعا تمور فى جوانبه ..

وانتحى من بيته ركنا وأغلق بابا وفكر ..

كيف أعرف منها هى أنها تقبل الزواج منى لشخصى وليس لصداقة بين أبيها وأبى ، ومحبة صادقة قوية بينى وبين أخيها ؟

أسأل .. كيف ؟.. وهل هذا يجوز .. أجرح حياءها وأعدو مكانى الذى لا ينبغى لى أن أعدوه ..

وانقضى الليل وأعقبه صباح ، ومع خيوط الفجر القادمة من السماء وجد إبراهيم هداه فى حيرته السعيدة .

مع أذان الفجر ذهب إلى بيت الشيخ مأمون فوجد عبد الواحد يهم بالخروج ، ليلحق بأبيه فى المسجد ويصلى معه الفجر حاضرا .

ــ عجيبة ! أنت لا تصلى الفجر فى الجامع ..

ــ ولكن هل هناك ما يمنع ؟

ــ أعوذ بالله ، بل هو الأفضل ..

ــ لم أنم ، قلت أجىء إليك ونصلىْ معا بإمامة أبيك ..

ــ علم الله يا أبا خليل أن وراء حديثك أمرا .

ــ لم أستطع أن أخفى عليك من نفسى خافية ، فأى عجيبة أن تعرف هذه أيضا .

ــ هلم بنا ..

وصليا الفجر ، وبعد قراءة التحيات ظل إبراهيم فى مكانه وفى

هيئته أنه يريد أن يقول ما بنفسه وهو فى مكانه هذا .. وفهم عبد الواحد .. وبقي إلى جانب صديقه .. وانفض المصلون وخلا بهما بيت الله .

— هنا فى بيت الله أريد أن أكلمك فيما جئت إليك من أجله ..

— توكل على الله ..

— أبى يريدنى أن أتزوج ..

— ماذا ؟..

— لا تناقش .. ابنه الوحيد ويخاف عليه الفتنة ، أو هذا ما قاله لى ، وربما كانت الحقيقة أنه يريد أن يرى لى ولدا ..

— لن أناقش .

— أريد الزواج من روحية .

وفى دهشة بالغة انتفض عبد الواحد :

— ماذا ؟..

— ما سمعت .. إن لها فى قلبى مكانا أخفيته عنك ظنا منى أنها ستسبقنى إلى الزواج ، وأريد منك شيئا لم يطلبه أحد من أخى فتاة مطلقا ..

— ماذا تريد منى ؟..

— أنا أعلم مكانى ومكان أبى فى بيتكم ، ولكننى لا أريد روحية

زوجة مرغمة على الزواج بحكم صلات أهلها بصلات أهلى .

— وأنا ماذا أفعل ؟..

— لم أتصور أن انتهز فرصة فأسألها أنا ، فإننى بهذا أكون قد خنت صداقتى بك ، وهدانى الله أن يكون السؤال منك سؤالا صريحا من أخ إلى أخته .

وأستحلفك بالله وبصداقتنا إن وجدت لحظة من تردد ألا تعيد عليها السؤال ..

واحتضن عبد الواحد إبراهيم ودمعتان تطفران إلى عينيه ، ما يدرى أدمع فرح بصديقه أم إعجاب به ..

— نعم الرجل ونعم الصهر أنت ونعم الأخ !.. أسألها إن شاء الله وسأجتهد أن أكون فى سؤالى وفى نقلى لحديثها إليك قريبا من أمانتك .. أمانتك مع نفسك ومع الصداقة ... قم بنا ..

وقال إبراهيم وهو يربت ظهر عبد الواحد :

— هيا ، وفقك الله وجعل الخير على يديك ..

لم يكن شعور روحية أقل من شعور إبراهيم ، فقد كان قلبها يجيش إليه بألوان من الحب شتى .. وكان حبا منطلقا لا يقيده ما يقيد حب إبراهيم من محاذير .. كانت تحب وكفى ، وتلقى إلى المقادير مصائر هذا الحب .. ولم تكن فى حاجة إلى أن تستوثق من حب إبراهيم لها

فإن للفتيات إلى أعماق القلوب نظرة لا تخطئ ، وللفتيات قدرة على إخفاء مشاعرهن . فإبراهيم معذور إن استبهم به الطريق و لم يصل إلى حقيقة حبه فى قلب روحية ، أما الشباب فهو فى إخفاء الحب ساذج .. وإن له دائما من نظراته ولفتاته وقسمات وجهه ما يفضحه ، فما بعجيب أن تدرك روحية مدى حبها فى قلب إبراهيم .. وما بعجيب أن يجهل هو إن كانت تحبه أو لا تشعر به ..

قال لها عبد الواحد :

ـــ ما رأيك فى إبراهيم يا روحية ؟

وانبهرت روحية وأطبقت عليها الحيرة .. أيكون عبد الواحد قد اطلع على خفايا فؤادها ، أو يكون إبراهيم قد باح بحبه البكر إلى صداقته الخالصة عند عبد الواحد ؟.. وجمعت حروفا كونت جملة مترددة متهدلة غير واضحة المعالم :

ـــ ما معنى هذا السؤال ؟

وفى حسم الأخ وفى أمانة الصادق الذى لا يعرف كيف يدور بالحديث :

ـــ يريد أن يتزوج بك .. نعم تلميذ ويتزوج .. يريد أبوه أن يفرح به .

وانفرجت فرحة على معالم روحية جميعا وهى تقول فى سعادة

ذات نغم :

ـــ وأنا ما شأنى ، لماذا لم يكلم أبى ؟

ـــ عرفت الجواب إذن ، فقد كان حبيبى إبراهيم متحرجا أنك قد تقبلينه من أجل صداقته بى ، أو من أجل صداقة أبيه بأبيك ..

ـــ وماذا رأيت ؟

ـــ رأيت ما يرضى ضميرى ..

وتخاذلت روحية فقد أدركت أنها فشلت فى إخفاء مشاعرها ..

ـــ إياك يا عبد الواحد أن تنقل ما رأيت منى إلى .. إلى .. إلى إبراهيم أو إلى أبى ..

ـــ سرك معك لم يبرحك ، وتعالى أقبلك لأكون أول من هنأتك ..

وقبل الأخ أخته ..

ـــ وأقيمت الأفراح وتزوج إبراهيم من روحية . وما هو إلا شهر حتى حملت روحية حملها الأول .. ولكن الأقدار شاءت فى إرادة لا يعلمها إلا صاحب النفوس وبارئها ومعطيها وآخذها ، أن يموت إبراهيم وزوجته فى شهور الحمل لم تزل .. وكأن إبراهيم قد ولد ليهب الدنيا هذا الولد الساعى إلى الحياة من السماوات العلا .

وكأن الله قد شاء أن يؤدى إبراهيم ما خلق له ، ثم يطويه إليه

سراجا وهب الحياة ما تحمله روحية ثم انطفأ ..

وانطفأت الحياة جميعها فى عين عبد الهادى ، وتعلقت نفسه بالجنين قبل أن يراه أملا ليأس قاتم ، ونورا لظلمات من طبقات بعضها فوق بعض ، حتى كان إبراهيم إن أخرج يده لم يكد يراها إلا بهذا البصيص من الشعاع الذى يومض إليه ممن تحمله روحية ..

وأصبح انتظار المولود هو عمل عبد الهادى الذى لا عمل له غيره . كانت يد الطفل تمتد من السماء ويتعلق بها عبد الهادى تمسك الغريق ليس له غيرها أملا ..

وحل موسم الحج ووجد عبد الهادى أنه إذا حج يستطيع أن يعود قبل أن تلد روحية .. فخرج إلى الحجاز هناك يدعو : لبيك اللهم لبيك فيما أخذت ولبيك فيما أعطيت عبادك ، نحن نرضى بما قسمت ونردد آياتك التى منها كلماتك المشرقة الوضاءة ..

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

صدق الله العظيم

٢

عاد عبد الهادى من الحج ، وفور عودته طلب من القابلة الحاجة مبروكة أن تقيم فى البيت إقامة كاملة حتى تشرف على راحة روحية ، لا لتقوم بتوليدها .. فقد كان ينوى أن يجعل الطبيب جابر فواز أحسن أطباء النساء فى المركز يتولى ولادة — روحية ..

وتمر الأيام ويفاجأ عبد الهادى بالشيخ مأمون الزيادى قادما إليه ..

— يا حاج عبد الهادى فقد سكتّ طوال هذه الفترة احتراما لحزنك .

— سكت عن ماذا ؟

— عن بقاء روحية فى بيتك ..

— أليست ابنتى ؟

— ولكن زوجها ...

وألجم الأسى لسان الرجل الطيب . وقال عبد الهادى :

— ماذا .. لماذا لا تقولها ؟..

ـــ لقد كان منى بمكان الابن أيضا .

ـــ هل أنت واثق ؟

ـــ الله أعلم .

ـــ إذن فأنت صادق فى قولك .

ـــ لا شك فى ذلك .

ـــ أما إن شأنك لعجيب ..

ـــ وأى عجب أن تلد ابنتى فى بيتى ..

ـــ يا أخى لقد اعتبرت أنت ابنى ابنك ، فلماذا تأبى أن تكون ابنتك بنتى وهى تحمل ابن ابنى فعلا ..

ـــ العرف والتقاليد ..

ـــ ومتى كان لى بيت ولك بيت يا شيخ مأمون ؟

ـــ أخشى أن يقول الناس إننى بخلت أن أنفق على ولادة ابنتى .

ـــ أكلام صغير كهذا يجعلك تطلب أن أترك ابن ابنى يولد فى بيت غير بيته ؟.. اسمع يا شيخ مأمون ، إن روحية لن تترك بيتى لا قبل الولادة ولا بعد الولادة إن شاء الله .. وإذا كلمتنى فى هذا الأمر مرة أخرى لمجرد خشية كلام صغار فستكون قطيعة بينى وبينك ..

ـــ لا قدر الله ! أنت كبيرنا وبيتك بيت الجميع ، فلا عجب أن يكون بيت حفيدك وأم حفيدك ..

— وابنتك ابنتى على كل حال .

— توكلنا على الله . السلام عليكم ..

— ألا تزور ابنتك وتدعو لها ..

— أخشى أن أثير فى البيت اضطرابا .

— المرء لا يثير فى بيته اضطرابا أبدا . ادخل على بركة الله .

* * *

حل موعد الولادة ، ولكن روحية وحميدة ومبروكة فوجئن جميعا بما لا يتوقع أحد ..

بدأت الآلام ..

وسارعت مبروكة تطلب الطبيب فى التليفون ، وطلبته وعادت ترافق الوالدة ..

ولكن الآلام لم تدم إلا دقائق قليلة ، ثم رأت مبروكة أن الولادة تتم فعلا . سبحان الله العظيم !.. بكر تلد بهذه السهولة التى لم أر لها مثيلا فى اللاتى ولدن ثمانى مرات وعشر ! وقبل أن تكمل ذهولها كانت تستقبل المولود على يديها نظيفا طاهرا كأنما قام الملائكة بتحميمه قبل أن يولد . وقامت مبروكة فى خبرة القابلة العجوز بكل ما يجب القيام به فى أحوال الولادة ..

وحين جاء الدكتور جابر كان الطفل قد رضع من أمه وكان

كلاهما نائما ..

منصور .. فإنى منصور من الله أن لم يضل عقلى حين فقدت أباه ، وهو منصور من الرحمن الرحيم ليكون نصرا لى فى مصابى . وهو إن شاء الله منصور إلى الحق والصراط المستقيم ..

منصور هكذا نذرت أن أسميه وأنا متعلق بأستار الكعبة ، وعند شباك الرسول ﷺ ..

منصور هو إن شاء الله .

وإذا كان الطغيان قد ألغى تعليم القرآن ، فإنى بقوة الله أقوى من إرادتهم ولن يذهب إلى المدرسة إلا وقد ختم القرآن .. هنا فى بيتى وعلى يد جده الشيخ مأمون . وسبحان الذى حرم وسبحان الذى وهب ولا إلـٰه إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

كان منصور منذ طفولته ذا جاذبية آسرة ، لا يراه أحد إلا كبر لله فقد كان فى وجهه حب وإيناس . ومن عجب أنه وهو الطفل يجعل المقترب منه يحاول أن يرضيه بكل وسائل الإرضاء .. ويسعد جليسه غاية السعادة إذا ابتسم ، ويشعر مرافقه أنه هو الذى يبتسم لا الطفل ..

* * *

أذن الله للحاج عبد الهادى أن يبر بقسمه ، وختم منصور القرآن وهو فى العاشرة من عمره فلم يتأخر عن رفاق سنه فى المدرسة إلا سنتين .. وما سنتان فى عمر الزمان ؟

* * *

حين كان يأتى الشيخ مأمون ليعلم حفيده كان يلاحظ فى السنوات الأخيرة من حفظ منصور للقرآن أن ابنته روحية تضوى ويشتد بها الهزال ..

ــ يا ابنتى ألا تأكلين ؟

ــ يا أبى كيف ؟ هل يستطيع الإنسان أن يعيش بغير أكل ؟..

ــ هزالك يشتد لعلك تخجلين أن تأكلى ..

ــ أيخجل الإنسان فى بيته .. وأنت تعرف أننى أقوم بشئون البيت جميعا ، وأن حماتى خالتى حميدة قد تركت كل شىء لى وهى سعيدة بذلك ، فممن أخجل إذن ؟

ــ إذن لا بد أن هناك شيئا يسبب هذا الهزال ..

ودخل الحاج عبد الهادى مرة وسمع هذا الحوار ..

ــ أنت محق يا شيخ مأمون ، ولهذا طلبت الآن الطبيب دكتور إسماعيل حسنى ليقول لنا رأيه ..

وجاء الطبيب وقال :

ـــ ليس بها شيء عضوى ، وربما تحتاج إلى بعض المقويات ..

وارتاح الحاج عبد الهادى والشيخ مأمون لهذا القول وحمدا الله ، وكان منصور يرقب هذا جميعا بقلب واجف محاولا ألا يشعر به أحد . غير أن عينى أمه كانتا ترقبانه فى تطلع وسعادة أنه مهتم بشأنها .. ورأت فى محياه أنه غير مطمئن لكلام الطبيب وأنه لم يسارع إلى تصديقه كما فعل جداه فإذا هو يقول لهما :

ـــ لا بأس أن نجرب دواء هذا الطبيب بعض الوقت ثم نسأل طبيبا آخر .

وضحك الجدان فى سعادة غامرة .. فالرأى سليم وسكوت منصور طول فترة وجود الطبيب وعدم مشاركته الكبار فى كل ما دار من أحاديث ، أثار فى نفس الجدين معا الكثير من الإعجاب ..

وبمناسبة ختام منصور القرآن أقام الحاج عبد الهادى ليلة لله سبحانه وتعالى تداول فيها مشاهير قراء القرآن قراءة القرآن ، وقام المشايخ بعمل الخاتمة ، ووزعت الصدقات على الفقراء والمعوزين ، وكانت روحية هى التى تقوم بشئون الليلة جميعا التى استمرت إلى الصباح ..

وقبل أن يترك المشايخ البيت جاء من يطلب إليهم البقاء .. لقد ماتت روحية والليلة فى ختامها الأخير ..

كأنما كانت على موعد مع إبراهيم أن تلحق به حين تطمئن على مستقبل منصور .

وكأنما خلقت روحية لتقدم منصور إلى الحياة وترعاه حتى يطمئن إلى الحياة ويهدأ مستقره فيها ، ثم تودعه لتستقبله يوم يريد الله أن يضمه إليه .

حزن منصور حزنا شديدا ، ولكن العجيب أنه لم يشعر بأى لون من الهلع أو الجزع .. فقد اطمأن قلبه إلى الإيمان وهو من حفظة القرآن وحمله فى قلبه .

بكى بكاء حزن لا خوف ، وعرف الأسى الآخذ الشديد الذى يعرف الناس حين يفقدون أمهاتهم . ومن كالأم حبا وتضحية وحنانا وحدبا وشفقة وإيثارا ؟ فقد كان حب منصور لأمه حبين فى وقت معا .. فقد كانت أمه وأباه .. وإن جده عبد الهادى يسكب عليه العطف والحب ألوانا وأفانين ، ولكن هل فى الدنيا جميعا شيء كنداء الأب لولده ذلك النداء الذى يكاد الأب يضع قلبه فيه .. نداء لم يعرفه منصور ولكنه أحسه فى أصوات الآباء وهم ينادون أبناءهم ، وافتقده هو لنفسه ولم يسمعه ..

ـــ الحكمة يعلمها ربى وبيده أرادنى أن ألقى الحياة بغير أب وبغير أم ، ولكنه سبحانه لطف بى فأحاطنى بقلوب حانية .. وما يريد الله

كائن ، والحمد لله على ما شاء حمدا يرضيه فى عليا السماوات ..

وسارت الحياة كما تعودت أن تسير دائما ، ومرت السنون وربما كانت وفاة روحية سببا فى أن يشعر منصور أنه مسئول عن نفسه فى خاصة شأنه . أما المأكل فهو مبذول ، وأما الملبس فهو يصل إليه بطريقة تلقائية .. فقد كان عبد الوارث يصحبه فى أول الشتاء ويشترى له ملابس الشتاء ، وكذلك يفعل فى الصيف .. وكان ملبسا من أحسن الأنواع دائما ..

أما من يلبسه هذا الملبس ، ومن يؤانسه حين يعود متأخرا من المدرسة ويتناول طعامه وحيدا .. ومن يؤنسه إذا نبا به مضجع وعز عليه نوم ، ومن يسمع منه إذا أحب أن يقول وأن يروى عن مدرسته وصحابه ونفسه ، لم يبق له إلا الله . وكانت نفسه ينير جوانبها القرآن والسجية النقية والصفاء الذى يهبه الله لبعض النفوس ، فيشيع به الرضى فى حياتهم .. والرضى أسمى درجات السعادة . وحسبك أن الله وهو الله قال لنبيه وهو نبيه : ولسوف يعطيك ربك فترضى ..

أما فى المدرسة فقد صاحب منصور الأصدقاء وأحسوا جميعا أنه متميز عنهم بحفظه للقرآن .. ثم هم فى مدرسة المركز يعرفون قدر الحاج عبد الهادى ويسمعون من آبائهم ثناء عليه .. وهكذا كانت تحيط بمنصور هالة من العلم وكرامة الأسرة فى وقت معا .. وأصبح

إخوانه الطلبة ينظرون إليه نظرة خاصة فيها حب وفيها احترام وتقدير . وفى حياة التلاميذ وفى ساعات اليوم الدراسى تقع قصص متتابعة صغيرة لا تروى ولكنها تجعل كل تلميذ يكون رأيه عن الآخر .. فى فصول الدراسة .. فى مناقشة الأساتذة .. فى ملعب الفسحة .. تتشابك خيوط من الحكايات التى تمر فى حياة الإنسان فلا يلقى إليها أى التفات .. وتدور مناقشتها وتنتهى دون عنف فى الخصومة أو لجاجة فى الرأى . ولكن التلميذ مع حكاية تتبعها حكاية ومناقشة فى إثر مناقشة يكون رأيه عن زملائه حبا أو غير حب قد لا يصل إلى الكراهية ، وإعجابا أو عدم إعجاب قد لا يصل إلى الاحتقار .. ومن هذه المشاعر تتكون الصداقات ، وبهذه الصلات تكونت صداقة وثيقة بين منصور وأمين عبد الصادق . فقد أعجب أمين برفيق فصله منصور وأعجب به منصور ، وتكونت صداقة بينهما قوية العرى يخالطها الإعجاب . وقد كان أمين ابن أسرة ثرية ثراء واسعا وكان أبوه يعمل بالتجارة . وهو بطبيعة الحال صديق للحاج عبد الهادى صداقة بعيدة فى أغوار الزمان . وصديق لأخيه الأصغر أيضا ، ولكن صداقة الآباء لا تعنى بالحتم صداقة الأبناء . ولكن إن كان الآباء أصدقاء فصداقة الأبناء — خاصة فى سن منصور وأمين الباكرة — تكون حميمة تجد التشجيع والتبريك من الآباء ،

وأصبحت صداقة منصور وأمين شهيرة فى المدرسة .

وكان منصور حريصا أن يقيم صلاة الظهر فى موقتها فى المدرسة وكان يصليها معه أمين ، وكان كثير من التلاميذ أصدقاء أو كانوا مجرد زملاء .. وكانوا يصلون على حصير الحاج أبو العلا فراش المدرسة . وفى يوم كثر المصلون حتى لقد نبتت فكرة فى ذهن منصور ..

— جدى عندى فكرة .

— قل يا شيخ منصور ..

— عجيبة أنك قلت يا شيخ .

— لقد أردت أن أدللك فقط ..

— ولكن اللقب يتفق تماما مع ما سأتحدث فيه .

— خيرا ..

— لقد بنيت جامعا حين استجاب الله لك دعاءك أن تنجب أبى ..

— فلنفرض ..

— فما رأيك لو أقمت جامعا صغيرا لوجه الله فقط ، ودون نذر منك ، واستجابة من العلى القدير ..

— أفعل .. ما المناسبة ..

— أنا لا أريد منك إلا مسجدا صغيرا فى المدرسة فنحن نصلى

الظهر فى المدرسة ، وأحيانا فى الشتاء يحل موعد العصر مبكرا ونصليه هناك أيضا . والتلاميذ يتزاحمون على حصير متهرئ ولا يتسع لهم فيصلون على البلاط . وصحيح أن الله أكرم نبيه ﷺ بأن جعل أرضه كلها مسجدا لعباده المسلمين إلا أن هؤلاء تلاميذ صغار وقد يصيبهم البلاط بالبرد .

ـــ لا بد أن تصبح محاميا يا منصور ، ولو أنك غير محتاج لهذه المرافعة كلها لتكسب القضية فإنك قد كسبتها منذ أبديت رغبتك .. والمال مالك وما أنا إلا حارس عليه وتوكلنا على الله .

ـــ بل انتظر يا جدى حتى أكلم ناظر المدرسة ..

وهو كذلك ..

وفى اليوم التالى ذهب منصور فاستأذن أن يرى حضرة الناظر الأستاذ وجدى عبد العال ..

ـــ إننا نريد أن نقيم مسجدا بالمدرسة ..

ـــ الميزانية لا تسمح يا أستاذ منصور .

ـــ جدى سيقيم الجامع .

ـــ حقا ؟

ـــ نعم .

ـــ أين نبنيه ؟

ـــ فى الفناء .. أنا وإخوانى وجدنا له مكانا مناسبا ..

ـــ ولكن أيرضى التلاميذ أن نضيق عليهم الفناء ؟..

ـــ هل لى يا حضرة الناظر أن أقترح اقتراحا ؟..

ـــ قل .

ـــ إن الله يقول فى كتابه العزيز : أمرهم شورى بينهم . اجعل التلاميذ يدلون برأيهم فى عملية ديمقراطية .. حتى يعرفوا أن الجامع بنى برغبتهم ولم يفرض عليهم .

ـــ موافقون .. ويشترك أيضا المدرسون فى إعطاء الرأى .

ـــ وهو كذلك ..

ـــ وهو كذلك ..

وتم أخذ الرأى فإذا هو إجماع لم يتخلف عنه المسيحيون من تلاميذ أو مدرسين .

وكان المسجد صغيرا وكانوا فى أوائل السنة الدراسية فصلى التلاميذ فى الجامع قبل الامتحانات بشهرين ، ورفض منصور أن يكون هو المسئول عن الجامع ..

ـــ إن جدى هو الذى بناه .. أكان بناه حتى أصبح أنا مسئولا عنه.وهل ترون أن أظل دائما أذكر زملائى أن جدى هو الذى بنى الجامع ؟..

ـــ فماذا ترى ؟

ـــ تتكون لجنة وتنتخب رئيسا لها ، ولن أكون أنا منها .

ـــ وكيف تتكون اللجنة ؟

ـــ بنفس الطريقة التى بنى بها المسجد ..

ـــ بالانتخاب ؟

ـــ ينتخب التلاميذ اللجنة ثم تنتخب اللجنة رئيسا .. أما أنا فلن أرشح نفسى .

ـــ ونعم الرأى ..

وتمت عملية الانتخاب وأسفرت عن انتخاب أمين عبد الصادق رئيسا للجنة الإشراف على المسجد ، وقال أمين فى أول اجتماع للجنة إن أباه متبرع بمصاريف المسجد من أجر الفراش إلى أجر المؤذن .. أما الإمام فسيكون الشخص الذى كان يؤمنا دائما منصور النقيب فهو أحفظنا للقرآن .

وقال وهبى عبد المجيد عضو اللجنة ..

ـــ طبعا إلا فى أيام الجمع ، فقد يأتى إلى الجامع من هم أكبر منه سنا ومن حفظة القرآن أيضا ..

وقال أمين ..

ـــ أحسنت يا وهبى ، وسنتفق مع عالم جليل ليأتى إلينا فى أيام

الجمع يؤمنا ويلقى علينا دروسا دينية أيضا ..

وهكذا استقر شأن الجامع وأصبحت قصته دائرة على كل لسان ، حتى لقد كتبت عنه الأهرام مشيدة بما قام به التلاميذ والمدرسون وأهل الخير الذى شاركوه فى أمره ..

* * *

من بين مدرسى المدرسة عبد العزيز المشد يمتلك قلما غالى الثمن يتباهى به على زملائه وتلامذته على السواء .. وهو حريص فى كل حصة أن يأمر التلاميذ بحل مسائل الحساب ليخرج هو القلم ويكتب به أى شيء ليراه التلاميذ فى يده . فهو أحيانا يكتب فى كراسة التحضير أو يكتب به خطابات لو رآه مفتش يكتبها لوجه إليه اللوم الشديد .. فخطابات الأقارب والأصدقاء ليس مكانها فصول الدراسة ..

وإن كان ذلك ممنوعا على التلاميذ فمنعه على المدرسين من باب أولى فالمفروض أن يكون المدرسون للتلاميذ قدوة .. ولكن عبد العزيز المشد معذور فيما يفعل ، فكيف له أن يظهر القلم ويتباهى به إن لم يكتب فى كراسة التحضير أو يكتب به الخطابات وكلاهما ممنوع أثناء الحصص .. فالكتابة بالقلم على السبورة مستحيلة .. وإذا أخرج القلم وتباهى به دون أن يستعمله فسيصبح بين التلاميذ

أضحوكة .. على أن التلاميذ — على كل حال — لا يفوتهم شيء . فقد أدركوا بحواسهم الساخرة ما يريد الأستاذ عبد العزيز أن يظهره من مفاتن قلمه الذى يتصور أن أحدا غيره لا يملك مثلا له فى الوجود .

وفى يوم بينما الأستاذ عبد العزيز يكتب بالقلم فتح باب الفصل ودخل مفتش الرياضة وفوجئ به الأستاذ عبد العزيز وتولاه الهلع والذعر فى وقت معا .. ووضع القلم على المنضدة دون أن يعنى حتى بوضع السن فى غطائه ، مع أنه فى الأحوال العادية يحرص كل الحرص على إحكام الغطاء إحكاما يستوثق معه أن القلم لن يفتح فى جيبه .

انتفض الأستاذ عبد العزيز قائما مرتعشا وهو يقول : قيام !..

تخلجت فى فمه حتى ما كادت تبين ..

وشذره المفتش بنظرة لاهبة وهو يقول :

— امض فى الدرس يا أستاذ ..

وراح الأستاذ عبد العزيز يسأل التلاميذ وراحوا يجيبون ، وانتهت الحصة وخرج المفتش ولحق به عبد العزيز ناسيا القلم ، فقد كان حريصا ألا توضع نقطة سوداء فى التقارير التى تكتب عنه حرصا مضاعفا .. فإن كل أمله أن ينقل إلى القاهرة حتى يتم زواجه من ابنة عمه وجنات التى مضى على خطبتها له سنتان ، وتم إعداد شقتها

وأصبح لا ينقصه إلا أن ينقل إلى القاهرة حتى تمضى العروس فترة الزواج الأولى مع أمها وأبيها .. هكذا تصمم أمها الست ألطاف ..

فما له إذن لا ينسى القلم ويسارع إلى سعادة المفتش يسترضيه ويستجديه ، ويبدى له ما يعن له من أعذار .

خرج التلاميذ من الفصل فقد حلت الفسحة الأولى ، وتصادف أن نادى وليد عبد الموجود زميله جرجس حنين ..

— يا جرجس ألا تخرج ؟

— لا ، سأكمل الواجب للحصة القادمة .

— تضيع عليك الفسحة ..

— بقى لى سطران أكتبهما وألحق بك فورا ..

وخرج الجميع وقد علموا أن جرجس باق فى الفصل .. وأوشكت الفسحة على الانتهاء . وتذكر منصور أنه لم يقرأ الواجب بعد كتابته فسارع إلى الفصل يقرأه قبل أن تبدأ الحصة .

والفصول فى المدرسة مبنية على الطراز القديم للمدارس ، فهى ذات نوافذ تطل على شرفة طويلة ويستطيع الواقف فى الشرفة أن يرى داخل الفصول ويرى فناء المدرسة أيضا .

فحين أصبح منصور أمام نافذة فصله الأولى رأى وجدى حسنين يأخذ قلم الأستاذ عبد العزيز ويخرج به مسرعا ، وقبل أن يصل

منصور إلى النافذة الثانية للفصل كان وجدى قد أولاه ظهره دون أن يراه .

وذهل منصور لا يدرى ماذا يفعل ؟ أيفضح صديقه ؟.. أيسكت عن سرقة رآها بعينيه ؟

عاد إلى الفسحة فلم يعد يفكر الآن فى إعادة القراءة للواجب ، وتولاه صمت واجم حزين يختلط بالحيرة والألم أن زميله وجدى لص .

انتهت الفسحة وعاد التلاميذ إلى الفصل ، وقبل أن يجلسوا دخل الأستاذ عبد العزيز مسرعا يبحث عن القلم ، فقد استطاع أن يحل مشكلته مع المفتش وحان له أن يبحث عن قلمه العزيز .. لم يجده طبعا فأوشك يجن وصاح بالتلاميذ :

ـــ قلمى !

وصاح بعض التلاميذ ما له ؟ وصاح آخرون اشمعنى ؟ ولكن الأستاذ عبد العزيز كان فى حال لا تسمح بأى تهاون فقد احمرت عيناه وارتعشت شفتاه ..

ـــ القلم ! أقتلكم جميعا .. القلم نسيته هنا مدة الفسحة فقط . من آخر تلميذ خرج من الفصل ؟..

وهوم الصمت على التلاميذ لحظات ، ثم قال جرجس حنين :

ـــ أنا يا أستاذ آخر تلميذ خرج من الفصل ، بل الواقع أننى بقيت بالفصل دقائق لأكمل واجبا لم أكن أكملته ..

فصاح عبد العزيز :

ـــ واجبا لم تكن أكملته !! هل سرقة قلمى واجب يا سى جرجس ؟.. هات القلم .

ـــ صدقنى لم أره إلا فى يدك ..

ـــ كان هنا على المنضدة وأنت وحدك فى الفصل ..

ـــ ليس هذا شأنى . إننا ما زلنا فى المدرسة . فتشنى ولو أن هذا أمر لم يحصل لى فى حياتى مطلقا ..

ـــ أفتشك ؟ أتظننى عبيطا لدرجة أننى أتصور أنك ستبقى القلم معك ..

وجاء مدرس الحصة التالية الأستاذ متولى أبو المجد ..

ـــ خير يا أستاذ عبد العزيز ؟..

وروى له عبد العزيز القصة ، ودون أن يحس متولى وثبت ابتسامة على شفتيه ..

ـــ أتضحك يا متولى ؟..

ـــ لا أقصد والله ، ولكننى أعلم مكانة هذا القلم عندك ..

ـــ نعم يا سى متولى ..

ـــ أول هدية من حبيب ... أقصد من خطيبتك ، ولك حق أن تحرص عليه وتعتز به .

ـــ ليس أمام الأولاد يا متولى ، والحقيقة أننى لم أجد قلما أراحنى فى الكتابة مثل هذا القلم ..

ـــ والآن ماذا ترى ؟..

ـــ لا بد أن يظهر القلم .

ـــ والحصة ؟..

ـــ فى ستين .. أقصد أنى آسف ، ولكن ماذا أفعل ؟..

ـــ أتشك فى أحد ؟

ـــ بل إننى متأكد من السارق .. الولد جرجس حنين ..

ـــ خذه إلى الناظر وأكمل القضية .

ـــ وهو كذلك ، تعال يا سى جرجس ..

وخرج جرجس مع الأستاذ عبد العزيز ودمعة تطفر من عينه تبعثها كرامة جريحة أن تفيض ، ويمسك بها شعور بالظلم أن تسيل ، فهى حائرة فى مكانها على جفنه لا تنضب ولا تنحدر .. وراح الأستاذ متولى يشرح الدرس وكان منصور قد استقر على رأى .. وانتهت الحصة .

وسارع منصور إلى وجدى وانتحى به ناحية ..

ــــ ضع القلم فى درج منضدة الأستاذ عندما نخرج فى الفسحة ، وأعاهدك ألا يعرف أحد .

ــــ ماذا .. ماذا تقول ؟..

ــــ لقد رأيتك بالصدفة ، ولا ترضى أن يضيع مستقبل زميل من أجل فعلة هو برىء منها كل البراءة ..

وأطرق وجدى خجلا ..

ــــ وتسترها على ؟

ــــ أسترها ..

ــــ وتنساها لى ؟..

ــــ إذا لم تتكرر .

ــــ لن تتكرر وأقسم لك .

ــــ توكلنا على الله ..

وفى الفسحة قال منصور للتلاميذ :

ــــ لماذا لا نبحث فى الفصل على القلم لعله فى جوانب الفصل .. أو لعل أحدا من الفراشين وضعه فى مكان ما .. كل واحد منا يبحث فى مكتبه ، أما أنت يا أمين فابحث على منضدة الأستاذ فإن عليها أوراقا كثيرة لعله تائه بينها ..

وطبعا وجد أمين القلم وأعطاه لمنصور ، وقال منصور: هيا بنا

نبشر الأستاذ عبد العزيز .

وخرج وتبعه بعض زملائه ..

ــ هذا هو قلمك يا أستاذ عبد العزيز .. أرأيت كم ظلمت جرجس !..

وصاح عبد العزيز وكأنه وجد كنزا ..

ــ الله يخليكم .. ألف شكر .. ألف شكر .. آسف يا جرجس يا خويا .. آسف يا بنى .

وحينئذ عرفت دمعة جرجس سبيلها فسالت وتبعتها دموع كثيرة ، بل وبكاء ونشيج .

وذهل عبد العزيز من الموقف وراح يربت كتف جرجس ثم قال :

ــ ماذا يرضيك ؟.

ــ لقد أرضانى الله يا أستاذ عبد العزيز ..

ــ سبحانه وتعالى ..

.. وخذ هذا كتاب جديد اشتريته ولم أقرأه ، سأكتب عليه إهداء لك أعتذر فيه وأصفك بما أنت أهله من الخير ..

صاح أمين :

ــ على أن يكون الإهداء بالقلم الذى وجدناه يا أستاذ عبد العزيز ..

ـــ طبعا وهل أكتب بغيره .

وضحك الجميع حتى جرجس .

* * *

مضت أيام على هذه الواقعة ، وسأل منصور أمين :

ـــ متى تجتمع لجنة الجامع ؟

ـــ غدا .

ـــ أتسمح لى بالحضور ؟

ـــ طبعا .

وفى اللجنة قال منصور :

ـــ إن ما حدث لأخينا جرجس يجعلنى أقترح عليكم اقتراحا .

ـــ ماذا ؟

ـــ أن نكون لجنة فى المدرسة لإحقاق الحق . لا نرى شيئا يضر بالمجتمع إلا ونحاول أن نغيره بالحسنى وبالهداية ونجادل المخطئ بالتى هى أحسن ، فالله يقول لنبيه ﷺ : ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ والله يقول : ﴿ وقولوا للناس حُسنا ﴾ .

قال أمين :

ـــ هذه فكرة رائعة .

وقال منصور :

— ومن يدرى لعلها تبدأ معنا فى المدرسة ، ثم تظل تجمعنا إلى آخر العمر .

— وستكون كذلك إن شاء الله .

وقال آخر لمنصور :

— مد يدك .

فمدها .

— ومدوا أيديكم إلى يدى .. اقرءوا الفاتحة على هذا الميثاق .

توكلنا على الله .

٣

حين مرض الحاج عبد الهادى مرض الشيخوخة كان راضيا غاية الرضا ، فقد كان منصور قد انتظم فى كلية الحقوق فى ذلك العام وهو فى العشرين من عمره .

ولم يطل المرض بالحاج عبد الهادى فقد اختاره الله إلى جواره دون أن يشقى بمرض طويل ، فما هو إلا أسبوع واحد نام فيه ثم انتقل إلى الباقية راضيا مرضيا .

وقد حزن منصور لموت جده الذى لم يعرف له أبا سواه ، والحزين لا منطق له فليس يعنيه أن الحاج عبد الهادى كان قد تجاوز الثمانين وأن كل حى إلى فراق . واستمسك منصور بإيمانه العميق ، وشارك منصور فى حزنه عبد الوارث الذى كان يرى فى عبد الهادى أباه هو أيضا وقد استطاع انشغاله بشئون المأتم أن يلهيه عن أحزانه بعض الشىء .

كان أهل المهدية أوفياء للرجل ، فلم يبق فيهم أحد لا يمسكه عذر إلا ذهب إلى الجنازة والمأتم جميعا . ولكن عبد الوارث لاحظ أن

المعزين الذين جاءوا لمنصور أكثر بكثير مما يتوقع أحد لشاب فى العشرين من عمره . وكان عبد الوارث قد سمع عن الجمعية التى تكونت فى المدرسة ثم اتسع أمرها ، ولكنه لم يكن يتصور أن الشباب المنضم إليها بهذه الكثرة .

كما لاحظ عبد الوارث أن أمين لم يترك منصور لحظة منذ مرض جده . بل هو يلازمه ملازمة تامة ، ولم يذهب إلى كلية الحقوق التى كان انتظم فيها هو أيضا طوال الأيام التى بقى فيها منصور مع جده .

حين انتهت أيام المأتم وحان لمنصور أن يعود إلى كليته .

— يا منصور أنت حتى الآن ...

— أعرف يا عم عبد الوارث ، والأمر لا يحتاج إلى كثير كلام ، ولهذا سمحت لنفسى أن أقاطعك . إننى أختارك أنت وصيا علىّ ، وحتى حين أبلغ رشدى فى العام القادم فأنت المسئول وحدك عن ثروتى وكأنها ما زالت فى يدى جدى تماما ، وضع لى حقى فى البنك وأنا أعرف من أنت فلا حساب بيننا ، فأنا واثق إن حقى سيزيد فى يديك لن ينقص .

٤

حين تخرج منصور فى كلية الحقوق كانت أمواله فى البنك أكثر مما توقع بكثير . فقد كانت مطالب منصور فى أثناء الدراسة قليلة كل القلة ، فإن فيه زهدا طبيعيا عن بهرج الحياة وهو نقى كل النقاء .. وعبد الوارث أمين كل الأمانة . وكان أحيانا إذا وجد صفقة مؤكدة الربح مستحيلة الخسارة ، كان يدخل بأموال منصور فيها ويضع الربح كاملا باسم منصور مع أمواله فى البنك .

أبى منصور أن يترك المهدية بل أصر أن يبقى بها ، وقام بالتمرين فى مكتب الأستاذ عز الدين الديوانى ، وزامله فى المكتب أمين عبد الصادق . وبعد انتهاء فترة التمرين فتح منصور مكتبه فى شقة بإحدى عماراته كان يعدها لذلك . وكان المكتب باسمه وباسم صديقه أمين عبد الصادق الذى شاركه فى المصاريف .

ومكاتب المحاماة فى المراكز سريعا ما يقصدها الزبائن ، فالناس يعرفون المحامين معرفة وطيدة ، ويعرفون آباءهم وأجدادهم وكل ما يحيط بهم .

فلم يكن عجبا أن يبدأ المحاميان الناشئان عملهما فى المحاكم فى نفس الأسبوع الذى افتتحا فيه مكتبهما بقراءة القرآن الكريم .

وتمضى الحياة فى طريقها بمنصور لا يميل لها سمت ولا يعوج به قصد . فقد كان يعرف ما يريد ، وما يجب أن يفعله وما لا يجوز له أن يفعله .

* * *

فواز صالح وتوفيق شافعى وعدلى عبد المسيح وعاطف منير شباب من قرية المهدية لم يكتب لهم أن ينالوا من التعليم إلا ما يسمح لهم بالقراءة والكتابة . أما فواز صالح وعدلى عبد المسيح فيعملان فى إصلاح السيارات بورشة الأسطى فتحى الصلحى ، وأما توفيق شافعى فنجار ، ويعمل عاطف منير كمنجد ، وهذان الأخيران لا يستقر بهما مقام فى ورشة وما هذا بعجيب ، بل العجيب أن يستقر فواز وعدلى بورشة الأسطى فتحى الصلحى . ولعل السبب فى ذلك أن الأسطى فتحى الصلحى لا يبدأ عمله قبل الحادية عشرة من صباح كل يوم ، وهكذا يستطيع كل من فواز وعدلى أن يفيقا من سهرة الحشيش والخمر التى يعكفان عليها كلما وجدا ثمنها ، ويشاركهما فيها توفيق وعاطف .

فواز صالح ابن الحاجة حسنية الصعيدى التى كانت تقوم بحلب

البقر والجاموس فى بيت الحاج عبد الهادى . وبفضل هذه الصلة وجدت حكاية فواز تقحم نفسها فى الحديث عن منصور . جمعت العمال الأربعة ليلة ليلاء لا يملكون فيها ما يشترى سيجارة وقال قائلهم :

ــ أهذا كلام ؟.. أربعة شباب مثل الورد لا يجدون ثمن زجاجة كونياك .

طيب نقول قرش الحشيش بالشيء الفلانى ، أنعجز عن شراء زجاجة كونياك ؟

ــ من قال إننا مثل الورد ؟ إننا مثل الزفت السائح ؟ مثل القطران . وهل هناك أخيب منكم .. أقصد منا جميعا ؟

ــ وماذا نعمل ؟

ــ كثير ..

ــ مثل ماذا ؟

مثل يا سيدى المرأة الحاجة جميلة الصيرفى ، أم الولد كامل الصيرفى الذى يعمل طبيبا بمصر والذى يكاد يجن من الكبر . المرأة وحدها وعندها صيغة وأموال و ..

ــ حاسب . حاسب ماذا تقصد ؟

ــ ألم تفهم ما أقصد ؟

ــ تقصد يعنى ..

ــ نعم أقصد يعنى ..

ــ أهذا معقول ؟

ــ انتظر ... كم الساعة الآن ؟

ــ التاسعة .

ــ سأستلف ثمن زجاجة كونياك ونفكر فى الموضوع .

وكانت الزجاجة الكلمة الأخيرة فى النقاش ، وهجم أربعتهم على السيدة العجوز وقاومت فكبلوها ، وضربها أحدهم بعود حديد استخلصه من كرسى أسيوطى وتم القتل .

وقبل أن يطلع الصباح كان الشرطة قد توصلوا إلى الجناة الأربعة وألقوا القبض عليهم .

إلى من تذهب حسنية الصعيدى ؟

فواز اعترف اعترافا كاملا فى محضر الشرطة وفى النيابة ، وكان يرافقه أمين عبد الصادق محاميا من المكتب ، حتى إذا تمت التحقيقات وجاءت حسنية إلى المكتب قال لها منصور :

ــ يا خالة حسنية أليس لك ابن نال الإعدادية ، وأظنه يعمل بالمديرية ؟

— نعم خضير ، الحاج عبد الهادى الله يرحمه هو الذى عينه .

— أحضريه معك وتعالى بكرة .

وفى اليوم التالى :

— اسمع يا خضير ، أنا لم أرد أن أقول لأمك وحدها الكلام الذى سأقوله لك .

— تفضل يا أستاذ .

— أخوك اعترف .

— نعم .

— وارتكب الجريمة .

— نعم .

— أنا لا دفاع عندى عنه إلا حالة السكر ، ولكننى لا أستطيع أن أكذب ، فإن يمين المحاماة يمنعنا من الكذب .

— يمين ماذا يا أستاذ ؟

— ألم تسمع ؟

— يا أستاذ منصور أنت لا تعرف مكانتك عندنا .

— مكانتى ، هذا لأننى صادق .

— بصرف النظر .

— وما دخل مكانتى فيما نتكلم فيه ؟

ـــ أقصد أن هذه قضية يتمناها كبار المحامين ، وسعادتك تبدأ حياتك .

ثم التفت إلى أمه .

ـــ أمه ! قولى له الأستاذ صدقى البحراوى قال لك ماذا ؟

ـــ وحياتك يا سى منصور قال لى ادفعى ألف جنيه وأترافع فى هذه القضية .

وقال منصور .

ـــ أنا لا شأن لى بالآخرين . الكلام لك يا خضير ، إذا قبلت أن أترافع معتمدا على السكر البين قبلت القضية ، وإلا فأنا معتذر .

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله . قضية ستجعل اسمك كالطبل تعتذر عنها . هل أحد يصدق ؟ وتقول اليمين يمنعك من الكذب . أهذا كلام ؟.. المهم أمرك . سلام عليكم !

التفت منصور إلى حسنية :

ـــ لا تزعلى منى يا خالة حسنية . كان لا يمكن أن أجعلك تفهمين ، بل إنك لا شك حتى الآن لا تفهمين موقفى . لا عليك . أمرى إلى الله ... هكذا خلقت .

ـــ والله يا بنى أنا لا أفهم شيئا .

ـــ لا عليك .

ـــ المهم هل ستترافع فى القضية أم لا ؟

— خضير سيفهمك على كل شيء .

— هيا يا أمه ... سأخبرك ... هيا يا أمه ... لا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

وما لبثت هذه القصة أن انتشرت فى المركز جميعه . فما سمع الناس من قبل محاميا يرفض قضية صغيرة كانت أم كبيرة . فكيف والمحامى ناشئ جديد والقضية شهيرة جهيرة ؟..

٥

نشأت الربيعى من أعيان المركز .. أو كان من أعيان المركز قبل أن يختاره الله إلى جواره . وحين لقى الله لم يكن عنده فى الحياة إلا فتاة فى ريق العمر هى سامية ، باع لها كل ما يملك حتى لا يرث معها أحد من أقاربه . وارتضى الأقارب ما فعله الأب مرتئين أنه عمل طبيعى يحاول به الأب أن يحافظ على مستقبل ابنته . واحد فقط من هؤلاء الأقارب ثار ثورة عارمة لأن نشأت حرمه ما كان سيسقط بين يديه من الميراث . وأغلب الأمر أنه ثار لأنه معروف أنه كبير مجرمى المنطقة ، واستكبر أن يعدو على حقه قريبه ويتحداه .. مع أنه الذى تعود أن يعدو على حقوق الناس ويتحداهم . ومن فى المركز لا يعرف رفعت الربيعى ، صاحب الحول المجرم والطول المعتدى ، والذى يثير الرعب فى أنحاء المنطقة جميعها بما تحويه يده من قتله ومن لصوص ؟ ورفعت الربيعى ذكى ، فهو مع كل حاكم يحكم يسانده وينافقه وينضم إلى حزبه ويتظاهر أنه من أتباعه .

وهكذا وقعت سامية بين فكى حيوان شرس لا ضمير له

ولا خلق ، وهى بلا نصير لها أو معين إلا الله سبحانه وتعالى وكفى به حسيبا ووكيلا .

كان أقارب سامية يعرفون ما يصنعه رفعت بسامية من اعتداء على الزراعة ، وسرقة للمحصول ، ومطاردة الفلاحين الذى يزرعون حدائقها ، وإرهاب لناظر زراعتها الحاج مراد الأشرم . ولولا أن الحاج مراد ذا أقارب وكبرياء لترك الأرض تنعى من زرعها ، ولكنه كان يقاوم مقاومة غير القادر ، وكفاه شجاعة أنه بقى فى مكانه لم ينكص ولم يتراجع .

وكان الحاج مراد كلما سمع عن محام قصد إليه ، ولكن المحامين كانوا يرتعدون من ذكر رفعت الربيعى ولا يتصورون أن يقفوا خصوما له فى المحكمة . فيرفضون قضايا سامية ويذيعون هذا الرفض ويكافئهم رفعت بأن يوكلهم فى قضايا أخرى ما يلبثون أن يقبلوها فرحين سعداء . وكانت سامية وهى تلميذة فى مدرسة المركز تسمع عن أخبار منصور وما يصنعه فى مدرسته ، وكانت تتبع أنباءه كلها وعرفت موضوع الجامع وموضوع الجمعية التى تسعى إلى إحقاق الحق فاستدعت ناظر زراعتها :

— يا عم الحاج مراد ألم تسمع عن المحامى منصور النقيب ؟..

— سمعت كل خير .. وكفاه فخرا رفضه الأخير لقضية كبرى

لأنه أبى أن يكذب ..

ـــ لماذا لم تفكر فيه ليتولى قضايانا ؟..

ـــ صغير ورفعت وحش ..

ـــ ليس الصغر والكبر بالسن يا عم الحاج مراد . إنه كبير وليس صغيراً .. اذهب إليه بقضايانا جميعا ..

ـــ أمرك ..

وقبل منصور جميع قضايا سامية دون مناقشة ، فقد كان واثقا من حقها لعلمه المحقق بإجرام رفعت الربيعي وفجوره .. وألسنة الخلق أقلام الحق . ودهش الحاج مراد ..

ـــ ألا نبحث القضايا معا يا أستاذ منصور ..

ـــ أنا قبلتها بادئ ذى بدء وسأدرسها ، ثم سأجى أنا إليك وإلى الآنسة سامية وأتدارس معكما جميع القضايا ..

ـــ أنت رجل ، وأنت ابن رجل ابن رجل أبا عن جد . علم الله كم عدد المحامين الذين رفضوا هذه القضايا يا أستاذ منصور ..

* * *

حين علم رفعت أن منصور قبل قضايا سامية أرسل إليه مفتاح أحد رجاله المشهورين بأنهم من القتلة المأجورين . وحين حاول أن يدخل مكتب الأستاذ منعه وكيل المكتب راضى العنتيبى ..

ـــ أتجرؤ أن تمنعنى ؟..

ـــ وأمنع سيدك أيضا إذا جاء هنا . هذا مكتب له حرمة وله أصول ، وعليك أن تنتظر دورك . أم تظن أن مجيئك وعلى كتفك هذا السلاح سيخيفنى ..

إن من يعمل مع منصور إبراهيم النقيب لا يخاف إلا الله وحده .. أم تظنون أنفسكم يا رجال رفعت أنتم وسيدكم أنكم أصبحتم آلهة فى الأرض . اقعد من القاعدين حتى أستأذن لك ..

وفوجىء مفتاح وخشى أن يرد فيزداد راضى إساءة له . وقعد وانتظر راضى حتى خرج الموكل الذى كان مع الأستاذ منصور ودخل إلى الحجرة :

ـــ مفتاح العبد بالخارج ..

وابتسم منصور ساخرا وكأنه كان يتوقع هذا أو شبيها له ..

ـــ طبعا معه بندقية ..

ـــ طولها ثلاثة أمتار .

ـــ دعه ينتظر حتى يدخل آخر موكل عندك ..

ـــ هذا ما توقعته منك .

وانتظر مفتاح إلا أنه أحب أن يخفف الحدة التى لقيه بها راضى ..

ـــ حتى ولا فنجان قهوة يا راضى أفندى ؟..

ـــ القهوة جائية من غير طلب يا مفتاح .. أنت تعرف من صاحب المكتب ومن أبوه ومن جده . بابهم دائما مفتوح للضيف ..

ـــ حاسب عليّ بعض الشيء .

ـــ لو كنت عندما قدمت طلبت الإذن بالدخول شأن الأكابر .. لرأيت منى كل ما يرضيك ..

ـــ غلطة وننساها .

ـــ ننساها إن شاء الله ..

ـــ هل سيطول انتظارى ؟..

ـــ هل رأيت أحدا جاء بعدك ودخل قبلك ؟..

ـــ الحكاية بالدور إذن ..

ـــ أليست هذه هى الأصول ... بالدور .. لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ..

ـــ منك نستفيد .

ـــ طبعا ..

ـــ وهل قلنا شيئا ؟.

ـــ الحق لا يقال فيه شيء يا مفتاح . إنه الحق .

وحين دخل مفتاح إلى منصور هب فيه فى عنف وكأنه فوجئ

بالسلاح الذى يحمله ..

ــ ماذا ، ما هذا ؟

وفوجئ مفتاح .

ــ ماذا يا أستاذ ؟

ــ ما هذا الذى تحمله ؟

ــ ولا مؤاخذة يا أستاذ ، متعودِ على حملها ..

ــ اخرج من هنا واتركها حيث لا أراها ، وحينئذ أقابلك ..

وفعل مفتاح ما طلبه منه الأستاذ منصور ، وخرج مسرعا ووضع البندقية عند راضى وهو يقول له :

ــ لماذا لم تطلب منى أن أتركها ؟

ــ حتى لا تحسب أننا نخاف منها أو منك .

ــ أبقها عندك الله يخليك .

ــ ضعها هنا على الكرسى الذى كنت جالسا عليه .

وحين دخل مفتاح فى هذه المرة وقف منصور وهو يقول :

ــ الآن نستطيع أن نقول أهلا وسهلا ، تفضل يا سيد مفتاح .

ــ أكثر الله فضلك يا سعادة البيه .

ــ هل شربت القهوة ؟

ــ أحسن بن ومن خلقك .. أحسن بن .

— أتشرب فنجانا آخر ؟

— أنت مشغول وهما كلمتان .

— قلهما .

— رفعت بك الربيعى يريدك أن ...

— ومن رفعت بك الربيعى يا سيد مفتاح ؟

— يا نهار أسود من الحبر الكوبيا .

— على مهلك ! أنا فقط ليس لى أصدقاء بهذا الاسم .

— آه .. ربما لا تعرفه شخصيا ، ولكن ألم تسمع عنه ؟

— آه .. تذكرت . لعلك تقصد الرجل الذى يجمع حوله اللصوص والقتلة .

— الله ، الله ، الله ! ما هذا يا منصور بيه ؟

— إذن فهو من تقصده .. ماذا يريد رفعت ؟

— أظن المسألة لم تعد تسمح بأن أقول ما جئت بشأنه .

— قله وأنا أخبرك إن كانت تسمح أو لا تسمح .

— كان يريدك أن تشرفه فى البيت .

— شىء عجيب !

— ما العجيب يا سيدى الأستاذ ؟

— شخص لا أعرفه ولا يعرفنى يرسل لى رجلا طويلا عريضا

يحمل بندقية لأذهب إليه .. ماذا يظن نفسه هذا الرجل ؟

ــ أنا مجرد خادم عنده ..

ــ وخادم أيضا . وكيف تتصور أنني سألبي الطلب ؟

اسمع ! أخبر رفعتك هذا أن لى مكتبا يستقبل كل من يأتى إليه . ولى أيضا تليفون يطلب أن أحدد له موعدا ، وسأرى عندئذ ماذا أفعل .. شرفت يا سيد مفتاح ، مع السلامة .

* * *

جن جنون رفعت الربيعى ، فقد تصور أى شىء إلا أن يقابل مندوبه بهذا الاحتقار ويقابل اسمه بهذا الامتهان . وزاد جنونه أن هذا الاحتقار كان على ملأ من الموكلين ، وتوقع أن يشيع ما حدث فى المركز كله .

وقد حدث فعلا ما توقعه رفعت وزلزل المركز زلزالا ، فقد كان الناس يخشون رفعت ويمالئونه ويتظاهرون له بالطاعة والخضوع ، فحين يرون شابا صغيرا فى مطلع حياته يصنع به هذا الصنيع ، فمن الطبيعى أن تزلزل المقاييس عندهم زلزالا ..

وفى بيت عبد العال هنيدى المحامى كان نفر من أصدقائه بينهم محامون وموظفون كبار يجتمعون فى شبه ناد خاص يلعبون النرد أو الورق ، وإذا بهم يلحظون أن صدقى البحراوى ليس كما تعود أن يروه

تهريجا وضحكا وممازحة ، بل هو فى حالة صمت غاضب . ويسأله عبد العال :

— مالك يا صدقى ، زوجتك ضربتك علقة ؟

— يا ليتها ! أنا أحتقر نفسى .

— أصبحت مع الأغلبية التى تكن لك هذا الشعور .

وضحك الجالسون ، إلا أن صدقى قطع ضحكهم قائلا فى حسم :

— لا فعلا أنا أحتقر نفسى .

— لماذا لا قدر الله . إنك محام مشهور ومكتبك من المكاتب الهامة ورب أسرة ناجحة والحمد لله . ماذا بك ؟.

— أحتقر نفسى وأحتقر كل الذى نصنعه عندك من إضاعة للوقت والمال .

— نحن جماعة نشقى طول النهار ونحاول أن نسرى عن أنفسنا باجتماعنا هذا .. ماذا فى هذا ؟

— نحن نحاول أن نسرى عن أنفسنا ونحاول أيضا أن نثير ضجة فى جوانبنا على أصوات ضمائرنا حتى لا تحاسبنا حضرات المحامون هنا . ألم نرفض جميعا قضايا سامية الربيعى خوفا من رفعت ويقبله شاب من أبنائنا ، وما فعله ما سمعتم به مع كبير مجرمى رفعت ؟ وتقول لى يا عبد

العال إننى محام ناجح . من الناجح أنا أم هو ؟ أنا الذى سعيت وراء قضية الطبيب أم هو الذى رفضها ، والمصيبة إن نظرته وهو الشاب يتأكد أنها أصدق من نظرتى.الأربعة القتلة إعدام فى حكم يندر أن يكون له مثيل . إن هذا الشاب منصور النقيب يبعث روحا جديدة فى المركز ، أو هو يبعث روحا جديدة فى الوقوف مع الحق مهما تكن النتائج .

وهوم صمت ثم ارتفع صوت مجيد مالك مدير الضرائب :

ـــ ما هذا الخطاب الطويل عن شاب أرعن يحاول أن يثير لنفسه شهرة ..

لا تتعجل الحكم وانتظر مصيره .

ويصيح صدقى :

ـــ أنتظر مصيره لما انتظره . لماذا لا أشاركه هذا المصير ؟ لماذا لا أعيد قضايا رفعت إليه ، ولماذا لا نعيد نحن المحامين جميعا قضاياه إليه ونحن نعلم أنه حتى القضايا المتوقعة الكسب منها ملفقة ، والأدلة فيها كلها تزوير وتدليس وغش ومخادعة ؟

وصمت المحامون ، وقال عبد العال :

ـــ لكل منا ظروفه يا صدقى .

ـــ يا أخى فى السماء رزقكم وما توعدون . وما تدرى نفس ماذا

تكسب غدا وما تدرى نفسى بأى أرض تموت . فإن كنا نخاف على المال ربك هو الذى يرزق ، وإن كنا نخاف على النفس فالذى أحيا النفوس هو يميتها . السلام عليكم أنا سأسير فى طريق منصور النقيب ، وليوائم كل منكم نفسه مع ظروفه .

وخرج صدقى وترك الجميع فى صمت عميق لم ينته إلا بخروجهم واحدا بعد آخر فى أثر صدقى ، كأنما كانوا فى غاشية من مخدر ثم أفاقوا وما أفاقوا . وسمع رفعت بهذا الذى حدث فى بيت عبد العال فأدرك أن الأمر خطير ، وضاقت به الدنيا فلم يعد الأمر مجرد أموال سامية إنما هو كيانه جميعا وسلطانه وجبروته ، وتجمع الناس حوله مهما يكن سبب هذا التجمع عن خوف أو عن منفعة .

وحين سمع أعضاء الجمعية عما فعله رئيسهم تقاطروا على مكتبه حتى اجتمع منهم عدد كبير ، وقال أمين :

— إن مجيئكم دليل على ذكائكم . إذا كنا نريد إحقاق الحق فإن البداية هى التى بدأها منصور ..

— ولكن كيف نكمل الطريق ؟

قال منصور :

— رفعت حوله الأغلبية الكاثرة من المركز ، كثير منهم عن منفعه ولكن الأغلبية عن خوف . وهو معه السلاح ونحن معنا

الحق ، وأريد اليوم أن نقسم أن نحق الحق بالحق وأن نحاربه بالكلمة . نريد أن نعرف إذا كان الحق قويا أم ضعيفا ونحن حوله ؟ لا نستعمل السلاح إلا يوم يحاول رفعت أن يستعمل السلاح على أشخاصنا ، نحن الذين نقول عن أنفسنا حماة الحق . ونحن لا نحارب رفعت وحده وإنما نحارب جمهورا حوله .

— فكيف تكون خطتنا بعد ذلك ؟

— إننا كثرة ولنا عيون .

— نعم لا شك فى ذلك .

— نريد أن نعرف تحركات رفعت جميعا ما وقع منها وما نتوقع أن يفعل .

— ممكن هذا .

— ونجتمع فى كل مرة نعرف أنه سيفعل شيئا ونبحث كيف نواجه ما ينتويه .

— على بركة الله . كلام منطقى ، ومعقول ..

وعرف رفعت أن اجتماعا كبيرا تم فى مكتب منصور ولكنه لم يدر عما دار فيه شيئا مطلقا ، فأفراد الجمعية بعيدون كل البعد عن النفع الشخصى وعن الجبن فلا طريق له بينهم أبدا .

* * *

كان منصور جالسا فى مكتبه حين دخل إليه راضى .

— رفعت الربيعى بالخارج .

— هل عندك موكلون ؟

— واحد .

— أدخل الموكل قبله .

— أفعل .

وفهم رفعت الإشارة ولم يحاول أن يقوم بأى احتجاج .

وحين مثل رفعت أمام منصور وقف منصور وصافحه .

— أهلا وسهلا .. تفضل .

— أهلا بك يا أستاذ منصور ، أنا أخى صديق لجدك ، وكنت أعرف المرحوم والدك ، كما أعرف عم أبيك عبد الوارث .. ولم يكن بيننا أى عداء ، فما هذا الهجوم ؟

— إن جدى وأبى وعم أبى لا شأن لهم بالذى بيننا إطلاقا ، إن كان بيننا شىء .

— كل هذا وليس بيننا شىء !

— ما هو كل هذا ؟

— قبولك لقضايا سامية .

— أما كلام عجيب يا سيد رفعت ! إذا لم يقبل مكتب محاماة

قضايا من الموكلين فماذا يصنع ؟

ـــ أنت تعرف أن القضايا جميعها ضدى .

ـــ هذا عليك وليس لك . كان الأولى بك وأنت كبير عائلة الربيعى أن ترعى حق فتاة ليس لها رجل يحميها .

ـــ وهل ترعى أنت حقها أكثر منى ؟

ـــ أنت لا ترعى حقها ، أنت تريد أن تحرمها حقها حتى فى الحياة .

ـــ وأنت الذى ستمنعنى .

ـــ نعم إن شاء الله .

ـــ أتظن ذلك ؟!

ـــ لا أظن ولكنى واثق .

ـــ بأى قوة لك ؟

ـــ بقوة لا إلٰه إلا الله ، محمد رسول الله .

وزلزلت الشهادتان رفعت ولكنه تماسك وقال :

ـــ بالخطب .

ـــ اترك الأيام لتشهدك ماذا يستطيع الحق سبحانه وتعالى أن يفعل .

ـــ طيب ، وما لزوم أن أرسل إليك رجلى فتشتمنى أمامه ؟

ـــ قد كنت أولى أن أعاتبك على هذا . كيف سمحت لنفسك أن ترسل فى استدعائى ؟ من أعطاك هذا الحق ؟

أموظف أنا عندك ، أم أنا واحد من المجرمين الذين تستخدمهم .

وقاطعه رفعت .

ـــ مجرمين .

ومضى منصور فى حديثه وكأنه لم يسمع شيئا ..

ـــ أم خادم أنا فى بيتك ؟ كيف أبحت لنفسك أن تستدعينى ؟

ومع ذلك فأنا لم أشتمك للمجرم حامل البندقية الذى أرسلته . كل ما فعلته إننى رويت ما يقوله الناس عنك . وألسنه الخلق أقلام الحق .

ـــ أنت تعرف أن الناس تحبنى .

ـــ أعرف أن بعض الناس ينتفع منك ، وأعرف أن كل الناس ترهب المجرمين الذين حولك .

ـــ يبدو أن التفاهم بيننا مستحيل .

ـــ ومتى كان هناك تفاهم بين حق وباطل ، أو بين سلام وطغيان .

ـــ السلام عليكم .

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

حين وجد رفعت أن المواجهة مع منصور غير مجدية استدار من

طريق آخر . طلب التليفون .

— عبد الوارث بك .

— نعم .

— أنا رفعت الربيعى .

— أهلا وسهلا .

— أريد أن أراك .

— تشرف .

— ألا تشرفنى أنت وتشرب معى فنجان قهوة .

— أفضل أن تشرفنى أنت يا رفعت بك .

— وهو كذلك ، غدا فى السابعة مساء يوافقك ؟

— أهلا وسهلا .

* * *

— ألا ترى ماذا يصنع منصور ، ألا تكلمه ؟

— أنا لا أعرف أنه صنع شيئا أكلمه بشأنه .

— اسمع يا عبد الوارث أنت تعرف كيف يزلزل كيانى ما يصنعه منصور .

— وماذا أقول له ؟

— فعلا لك حق .. ماذا تقول له ؟.. أنا قادم إليك لأقول لك ماذا

تقول له .

ــ تفضل .

ــ أستطيع أن أعينه فى النيابة أو القضاء فى ظرف أسبوع ، ويترك لنا المركز كما هو .

ــ أقول له .

ــ وأفهمه أن أغلبية الناس معى ، وإن كنت أضمن نفسى فأنا لا أضمن واحدا من رجالى أو من الناس الذين يحبوننى .

ــ هذا تهديد أرفضه يا رفعت ، أنت تعرف من منصور ومن أسرته .

ــ أنا أعرف ، ولكن ماذا نفعل مع الجهلاء الذين لا يعرفون ؟

ــ هذا كلام لا يليق بين أمثالنا يا رفعت . اترك لى فرصة الكلمة عن العرض الذى تعرضه ، أما التهديد فهو موجه إلىّ وأنا أرفضه ، وأنا قادر على تمزيق كل من يمس شعره فى رأس ابننا منصور .

ــ وهو كذلك .. متى أنتظر ردك على العرض ؟

ــ لن يتأخر .

* * *

ــ قاض ! ما هذا يا عمى ؟ من قال لك إننى أفكر فى أى وظيفة ؟

ــ يا منصور الرجل مجرم ، وأنا لا يهمنى أن تكون قاضيا أو لا

تكون ، وإنما تهمنى سلامتك . المجرم هدد .

— هدد ؟ اسمع يا عمى ، إن عرض على رئاسة الوزارة لن أترك المحاماة ، وإن اجتمع حولى المجرمون فى العالم أجمع لن أترك الحق والله فعال لما يريد .

— توكل على الله ! والله لن يخذلك الله أبدا . توكل على الله ونحن فداؤك .

* * *

٦

سامية فتاة فى ريق العمر فى الثالثة والعشرين من عمرها ، تركها أبوها منذ سنتين وكانت حريصة أن تتعلم ، ولكنها حين بلغت شهادة الثانوية كان أبوها قد مرض فاضطرت أن تترك التعليم وتلازمه ، فقد كانت أمها قد رحلت عنها وهى فى العاشرة من عمرها .. وأبى أبوها أن يتزوج خشية أن تسىء الزوجة الجديدة إليها . وهكذا حملت سامية مسئولية البيت وهى فى عمر الأطفال ، وجمعت بين الدراسة وشئون المنزل بطريقة ساذجة أول الأمر ، ولكن ما هى إلا فترة قصيرة حتى أصبحت خبيرة حاسمة تدير البيت وكأنها سيدة مكتملة . وقبل أن يمرض أبوها تقدم لخطبتها كثير من الأقارب وغير الأقارب ولكنها كانت ترفض الزواج حرصا على الدراسة . وحين مرض أبوها وبقيت فى البيت لم يجرؤ أحد أن يتقدم لخطبتها وأبوها مريض . وحين مات أبوها لم يجرؤ أحد أن يتقدم لخطبتها خوفا من رفعت .

وقد كان والدها ذكيا ، فحين ماتت زوجته وعقد العزم

ألا يتزوج راح يشترى كل عقار جديد يشتريه باسم سامية مباشرة . وحين قاربت سن الرشد عقد بيعا صوريا بكل ما يملك للحاج مراد الأشرم الذى باعه هو إلى سامية حتى يغلق طريق الصورية على أقاربه وعلى رأسهم رفعت ، وتلك وهذه من مضحكات القانون . إنه يرغم الأشخاص على اللجوءإلى الصورية ليغلق على المحاول الطعن بالصورية .

فملكية سامية لعقاراتها من أراض وعمارات لا مجال فيه لشك .

كان من الطبيعى أن تحس سامية بالفراغ بعد موت أبيها ، ولكن حرب رفعت لها ردت عنها هذا الشعور فقد كانت حربا شرسة لا تهدأ ، فلا يمر أسبوع إلا ويطالعها بكيد جديد . وهى فى دوامة تحس بانفرادها فيها . وكان يملؤها حسرة انفضاض أهلها من حولها ، حتى لقد كانت السيدات يخشين زيارتها حتى لا يتعرضن أو يتعرض أزواجهن أو أبناؤهن لشبهة غضب من رفعت الربيعى ..

لم يقف معها فى هذه المحنة إلا مراد الأشرم ، وقد كان رجلا ذا ضمير ، وكان يشعر أن سامية فى مكان ابنته فقد كان يعمل مع أبيها قبل أن تولد ، بل وقبل أن يتزوج أبوها أيضا ..

كان منصور اتفق مع مراد أن يأتى إليهم بعد أن يدرس القضايا ويناقش ظروف كل قضية معه ومع الآنسة سامية ، فقد كان يرى أنها

يجب أن تعرف أمور القضايا جميعها فهى متعلمة ، ومن حقها وواجبها معا أن تكون على علم بما يجرى فى المحاكم باسمها ..

ضرب جرس التليفون فى منزل سامية وقد كان منزلا جميلا يتوسط حديقة صغيرة تعتنى بها سامية كل العناية ..

ــ آلو ... من ؟

ــ أنا منصور النقيب يا أفندم .

ــ أنا سامية يا أستاذ منصور . أهلا وسهلا .

ــ هل أستطيع أن أجىء اليوم فى الساعة الثامنة بعد المكتب لنناقش القضايا ؟

ــ طبعا ! أهلا وسهلا .

ــ الحاج مراد موجود ؟

ــ طبعا .

ــ وهو كذلك ، مع السلامة يا هانم ..

* * *

فتاة جذابة الروح تحسن الاستماع كل الإحسان . أسئلتها تدل على ذكاء وقاد وفهم عميق لما يدور حولها . ملبسها غاية فى الأناقة والبعد عن البهرجة فى وقت معا . لا تحاول أن تتظاهر بما ليس فيها ، واثقة أن فطرتها نقية ليس بها ما يدعوها إلى إخفائه . بللورية الضمير لا تحمل

حتى لرفعت سخيمة أو كرها . نورانية الطلعة لا يجرؤ من يراها إلا أن يعاملها بأقصى ما يطيق وما لا يطيق من الاحترام . تختار ألفاظها فى طبيعة مواتية ، واثقة أنها لن تقول إلا ما ينبغى له أن يقال .

* * *

فى الساعة الحادية عشرة من نفس الليلة كان منصور يطرق بيت عم أبيه عبد الوارث ..

ــ وقعتْ فى نفسى أكرم موقع .

ــ لم نسمع عنها إلا كل خير .

ــ إذن عجل بخطبتها .

ــ للأسف ليس لها رجال أكلمهم . لم يعد أمامى إلا أن أكلمها هى .

ــ فى حضور الحاج مراد فهو فى منزلة أبيها ، وتحسن صنعا لو وجهت الكلام إليه فإن هذا سيرضيه ويرضيها فى وقت معا .

* * *

ــ آلو ... منزل المرحوم نشأت بك ؟

ــ نعم يا أفندم .

ــ الحاج مراد موجود .

ــ موجود يا أفندم . من يريده ؟

ـــ عبد الوارث النقيب .

ومع نبضه دهشه وفرح أجابت سامية :

ـــ دقيقة واحدة من فضلك .

جاء الحاج مراد إلى التليفون .

ـــ أنا عبد الوارث النقيب يا حاج مراد .

ـــ يا مرحبا يا سعادة البك ، يا أهلا وسهلا .

ـــ أريد أن أزور سامية هانم ، وأريدك أن تكون حاضرا الزيارة .

ـــ وما له يا سعادة البك تشرف . دقيقة واحدة أسألها .

وبعد لحظة أو أقل .

ـــ متى تريد التشريف يا عبد الوارث بك ؟

ـــ أمرك .

ـــ أى وقت ؟

ـــ غدا بعد المغرب معقول ؟

ـــ أهلا وسهلا .

ـــ سلام عليكم .

ـــ سلام عليكم .

* * *

ـــ يا حاج مراد أنت فى مكان والد سامية ، أطال الله عمرها

وعمرك .

ـــ أعمل مع المرحوم نشأت بك قبل أن تولد ، وقبل أن يتزوج هو أيضا .

ـــ أنا واثق أن سامية عرفت ما أنا قادم من أجله ، فهل عرفته أنت أيضا ؟

ـــ عبد الوارث بك تفضل بالحديث .

كانت سامية جالسة شبه غائبة ، فقد كانت تعرف عن منصور كل شيء . وحين رأته لأول مرة ورأت عظمته فى خلقه وأدبه وفهمه ازدادت به إعجابا ، ولم تكن تتصور أن تجرى الأمور إلى غايتها فى هذه السرعة . قال عبد الوارث فى حسم :

ـــ نريد ابنتنا سامية لابننا منصور . طبعا لن تسألوا عنا ولن نسأل عنكم فكلنا فى المركز نعرف كل خافية عن أبناء المركز ، ولم يبق إلا أن تسأل الآنسة الفاضلة وتجيب ندائى .. أمر عليكم غدا فى مثل موعد اليوم . السلام عليكم .

ألقى الكلام فى فرحة وفى إقبال وانشراح صدر ، ولم يسمح لأى حرج أن يشوب الجلسة .

* * *

تزوج منصور من سامية ، والعجيب أن كل أقاربها حضروا

الفرح وقد شعروا أن منصور أصبح اليوم سندا للحق فى المركز كله ، وجميعهم أصحاب حقوق عند رفعت .

الوحيد الذى لم يحضر هو رفعت فإنه من الغيظ فى حال قاتلة ، حتى ما استطاع أن يتظاهر بالفرح الذى تعود الناس أن يتظاهروا به فى مثل هذه المناسبات .

وبلغت به الوقاحة أنه أرسل خطابا مع أحد أتباعه إلى مكتب منصور يخبره فيه أنه يعتذر عن عدم حضور الفرح لأنه كان يجب أن يخطب منصور سامية منه هو . ومفاجأة أخرى جاءت فى الفرح .. لقد حضر المأمور الفرح دون أن يوجه إليه منصور الدعوة لأنه لم يكن يعرفه .. وأحضر معه باقة كبيرة من الورود عليها اسمه مجردا غير ملحق بوظيفته . فقط فائق الدروى بلا مأمور مركز بعدها . ورحب منصور به مقدرا مجيئه بغير دعوة ، ووضع المأمور ذراعه فى ذراع منصور وانتحى به ناحية منعزلة من الفرح وقال له :

ـــ أنت اليوم أمل لأمة بأكملها وليس لمركز واحد . إن التجربة التى ترودها من وقوف الحق أمام جموع الباطل ينظر إليها الناس فى كل مكان ، وربما نظر إليها العالم أجمع حين يعلم بأمرها .

ــ سر قوتى لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله .

ــ أوَ قليل هذا ؟.. إنى معك بقلبى ووظيفتى ، وإن فقدت حياتى من أجل هذه الكلمة أكون سعيدا راضيا . إذا كان لا بد أن نموت فلنمت ونحن نقول : لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله ..

* * *

٧

قصد أشرف الماوردى إلى مكتب منصور فى ظلمة الليل الحالكة . وانتظر حتى انصرف الموكلون جميعا وانفرد بمنصور وأمين .

— علمت اليوم أن رفعت ينوى أن يقوم بهجوم كاسح يسترد به ما فقده من هيبة .

— وفيم يتمثل هذا الهجوم ؟

— إنه ينوى أن يحرق أقطان السيدة زوجتك فى العزبة وأقطانك أنت أيضا فى يوم واحد .

وقال أمين :

— تصرف غبى ، فهو بهذا لا يستطيع أن يدعى أن الحريق فى المكانين المتباعدين غير متعمد .

وقال منصور :

— ومن قال لك إنه يريد الحريق أن يبدو غير متعمد . إنما يقصد قصدا أن يعرف الناس جميعا أنه حريق متعمد وأنه هو الذى أمر به

ودبر له ، وفى نفس الوقت لا يستطيع أحد أن يثبت عليه شيئا .

وقال أمين لأشرف :

ـــ من أخبرك ؟

ـــ عبد الله أبو سرور أحد رجاله وكان يعمل عندنا مزارعا ، وقد استطعت أن أسلخه منهم وأبقيه عينا لنا معهم .

وقال منصور :

ـــ هل عرفت الموعد ؟

ـــ نعم ، يوم الخميس مساء ليكون الجميع فى بيوتهم يسهرون حول التليفزيون .

ـــ اليوم الاثنين .

ـــ نعم .

ـــ إذن عندنا وقت .

وسأل أمين :

ـــ وقت لماذا ؟

ـــ القطن الآن عندى وعند زوجتى فى أكياس . سأنقله مساء فى باحة المنزل عندى . وفى مخزن آخر عند زوجتى . وفى نفس الوقت سنملأ أكياسا بفرزة القطن وبأعواد الهندى ونضعها مكان الحريق . وأريد منك يا أمين أنت وأشرف أن تقسموا أعضاء الجمعية بين بيتى

وبيت زوجتى ويستخفوا من بعد صلاة المغرب ، بحيث لا يشعر بهم أحد حتى ولا أهل المنزل أو عند زوجتى ، والباقى اتركوه على الله وعلىّ .

ـــ وما الباقى ؟

ـــ سترون الآن .

ورفع سماعة التليفون وطلب رقما :

ـــ آلو .. فائق بك .

ـــ أنا منصور ، يشاء الله سبحانه وتعالى أن تنفذ وعدك الذى وعدت فى أول لقاء لنا .

وجاءه صوت المأمور :

ـــ ما أسعدنى بذلك .

ـــ الأمر من اختصاصك وحدك .

ـــ ماذا ؟

ـــ رفعت أصدر أوامره لرجاله أن يحرقوا القطن عندى وعند زوجتى يوم الخميس القادم .

ـــ أهذا معقول ؟

ـــ يريد أن يعرف الناس قوته وجبروته ، وفى نفس الوقت لا دليل .

— معقول .

— المهم أن هذا العمل الواسع سيحتاج إلى كل رجاله ، ولن تجد فرصة خيرا من هذا لتقبض عليهم متلبسين .

— وهل تتركهم يحرقون القطن ؟

— إن جريمة الإحراق تقع بمجرد القيام بها ، أما الشيء المحروق فليكن ما يكون . وسيادتك تعرف القصد الاحتمالى وما قد يترتب على هذا الحريق من انتشار النار فى البلدة جميعا .

— تصرف فى غاية الذكاء .. توكل على الله .

— وهل لنا غيره ؟

* * *

رأى أصدقاء منصور المختبئين فى تربص رجال رفعت وهم يتقاطرون واحدا فى إثر آخر قدر جهدهم ألا يلفتوا إليهم الأنظار ، وهم لا يدرون أن وراء كل شجرة أو ثنية بيت رجل شرطة أو واحدا من أصدقاء منصور . وكان المأمور نفسه بسيارته الخاصة داخل حديقة البرتقال الواقعة بجانب مخزن سامية . وكان نائب المأمور متربصا هو الآخر قريبا من بيت منصور . كان جميع رجال الشرطة وأصدقاء منصور يعلمون أن الموعد هو الخميس ولكن لم يعرفوا فى أى ساعة وقت لهم رفعت القيام بمهمتهم .

هوم صمت متوقع على الجميع ، وكان الجميع مجرمين وشرفاء يحبسون أنفاسهم أن يعلو لها صوت . وتجمد كل فى مكانه فكأنه قطعة من شجر أو حجر من بناء . وارتفع صوت المؤذن يشق الليل والصمت والتربص : الله أكبر الله أكبر ! وفى نفس اللحظة نبت المجرمون من مكامنهم .. وتكوفوا حول المخزنين بعض منهم هنا عند منصور فى بيته ، وبعض منهم هناك عند سامية فى عزبتها . وانتظر رجال الشرطة وأصدقاء منصور جميعا حتى أشعل المجرمون النيران هناك وهنا ثم خرجوا إليهم من حيث لا يحتسبون ، وقبضوا عليهم جميعا متلبسين ، الشرطة تؤدى واجبها وأعضاء جمعية الحق شهود .

وظهرت سيارات الشرطة بعد قليل ونقلت المجرمين إلى المركز ، وبدأ التحقيق .

كانوا كما توقع منصور هم كل عصابة رفعت لم يتخلف منهم إلا عبد الله أبو سرور الذى أعلن خروجه على رفعت صائحا فى وجهه : لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله .

* * *

كانت ضربة حاسمة لرفعت حتى لقد راح أصدقاؤه ومن كان يصطنعهم يسخرون منه وينقلبون عليه جماعات ووحدانا ، فدارت به الأرض فقد رأى ما بناه فى عشرات السنين يهوى أنقاضا ، وسارع

إلى صدقى البحراوى المحامى ليحضر مع المتهمين ويترافع عنهم . وكان ذلك عجبا فقد كان صدقى بعد ثورته التى أعلن عنها فى بيت الهنيدى .

ــ ألم أعد إليك قضاياك جميعا يا رفعت بك ؟

ــ وغضبت منك غضبا شديدا .

ــ غضبك كان فى حسبانى وأنا أرسل القضايا .

ــ ظننت أن الأتعاب كانت قليلة ، وها قد جئت لأضاعفها .

ــ أنت ظننت ذلك يا رفعت بك .

ــ أنا لم أغضبك فى شىء ، فكان عجيبا أن ترسل إلى القضايا بلا تعليق .

ــ ألم يدر بذهنك أن إنسانا ما تأتى عليه لحظة يحاول فيها أن يتطهر ويقول : لا إلٰه إلا الله ، محمد رسول الله .

ــ فجأة ؟

ــ أترى أنت أنها فجأة ؟ يا ليتها كانت فجأة إذن لحمدت لنفسى أننى رجعت إلى الله من تلقاء نفسى ، ولم يهزنى شاب صغير كنت أنا أولى أن أسبقه فى الرجولة والشجاعة ، وفى صيحة الحق .

ــ ما فات فات .. نحن الآن فيما نحن فيه .

ــ وما الذى نحن فيه ؟

ـــ نحن إزاء قضية جمعت الشرطة فيها كل رجالى .

ـــ أنعم بالحكومة وأكرم !

ـــ هل أفهم من هذا أنك ترفض ما جئت لك من أجله ؟

ـــ أكاد أعرف ما جئت من أجله ، ولكن لا أتصوره .

ـــ لماذا لا تتصوره ؟

ـــ محام أرسل إليك قضاياك القديمة ، فكيف يقبل قضايا منك جديدة ؟

أليست تلك عجيبة من عجائب الدنيا ؟

ـــ الأمر مختلف .

ـــ فيم الاختلاف ؟

ـــ هذه ليست قضايا خاصة بى ، إنها قضايا أفراد شتى .

ثم إنها قضايا جنائية وليست مدنية مثل التى كانت عندك .

ـــ رفعت بك ، أرجو ألا يكون ما حدث قد أثر على ذكائك . كيف تقول إنها قضايا أفراد ، إنها جميعا قضيتك أنت ، والغالب أن يذكر واحد من هؤلاء اسمك كمجرم .

ـــ يستحيل .

ـــ أنت الآن فى موقف لا يسمح بالتأكد من أى شىء أو أى شخص . هؤلاء مجرمون والقضية جناية . ألا يحاول كل منهم أن

يتشبث بأى شيء .

— بل كل واحد منهم يعلم أنه إذا دخل السجن فلا ظهر له إلا أنا حتى يجد بيته ما يعيش منه .

— ومع ذلك ليس لك أن تتأكد من شيء .

— فما قولك أنت ؟

— فيم ؟

— هل ترفض هذا القضايا ؟

— لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله .

— يعنى يذهب كل هؤلاء إلى السجن ؟

— ولكم فى القصاص حياة .

— وبعد ماذا أفعل ؟

— مكاتب المحامين فى كل شارع .

— فى المركز أنا لا أثق إلا بك .

— أنا لن أترافع عنك أبدا يا رفعت بك .

راح رفعت يكلم نفسه ..

— ماذا أعمل .. ماذا أعمل ؟.. ألجأ لمحامين من القاهرة ؟

— هذا يكون أحسن . لأنك ستواجه قضايا أخرى يا رفعت بك .

ــ ماذا ؟

ــ مظاليمك كثيرون . وما كان يخيفهم بالأمس من رجالك وسلاحك زال . امّحى من الوجود . فتوقع قضايا جديدة مدنية وجنائية من كل نوع .

ــ أتهديد هذا ؟

ــ يا رفعت بك لا تفقد ثباتك فإنك لم يبق لك غيره . الجماهير انفضت عنك ورجالك في السجون ، لم يبق لك إلا ثباتك فحذار أن تفقده ، هذه نصيحة لوجه الله . كيف أهددك أنا ؟ هل ظلمتنى ؟ إننى فقط أتوقع بتفكير حر ليس فيه مصالح شخصية .

واستخزى رفعت وأطرق ، ودون سلام جمع نفسه المبعثرة وقام إلى الباب وخرج وصدقى يشيعه ، وصيحة تملأ نفسه : لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله ..

٨

حفنى سلام سائق سيارة اشتراها بعد جهد جهيد طوال سنوات عشر ، كان يوفر من ضرورات الحياة حتى يحصل على ثمنها . وقد اشتراها قديمة توشك أن تكون مستهلكة فقام بإصلاح آلتها وتجميل خارجها بكل ما يطيق من جهد وخبرة ، واستخرج رخصة تتيح له أن يجعل السيارة على الخط .. وهو تعبير يعرفه سكان المراكز ، ويعنى أن السيارة تعمل بين مصر والمركز بشكل منتظم . واستخراج هذه الرخصة يحتاج إلى مجهود كبير آخر مع الجهات الرسمية ومع زملائه على الخط حتى لا يعدو عليهم ولا يعدوا عليه .

وبدأ حفنى عمله على الخط وهو مثقل بالديون ، فكان يعمل ليل نهار ليسدد ما عليه من ديون وليتبقى له ما يقيم أوده وزوجته وردة وبناته الأربع وابنه الذى جاء بعد البنات ، فاعتبره أعظم ما وهبته له السماء وأسماه محروس داعيا الله بالاسم الذى اختاره أن يحرسه .

ومرت سنوات خمس ، وبدأ محروس يذهب إلى المدرسة ، ولكن شاء الله أن يمتحن عبده حفنى فأصيب محروس بالمصران الأعور ، وكان

لا بد أن تتم له العملية بين يوم وليلة .

وجن جنون حفنى وراح يجرى هنا وهناك . ولكن من أين لأصدقاء حفنى أن يعينوه بالرقم الذى تحتاجه العملية وكان قريبا من خمسمائة جنيه . وفى لحظة الجنون التى تمر والأب يخشى على ابنه الموت المحقق اتجه إلى رفعت الربيعى .

ــ أنت تعرفنى العمر كله ، وطالما كنت تحت أمرك .

ــ هذا كلام لا ينفع الآن ، كيف أضمن المبلغ إذا أنا أعطيته لك ؟

ــ خذ كل الضمانات التى ترضيك . أكتب لك وصل أمانة .

ــ وماذا أفيد أنا من حبسك إذا لم تدفع ؟

ــ فماذا تريد ؟

ــ تبيع لى السيارة .

ــ يا نهار أسود ... وكيف أعيش ؟

ــ بيع صورى .

ــ أمرك .. ولكن معنى البيع الصورى أن تكتب لى ورقة تذكر فيها أن البيع صورى .

ــ هل أنت عبيط ؟!

ــ فكيف يكون البيع صوريا إذن ؟

— يكون كذلك بينى وبينك .

— وإذا استوليت سعادتك على السيارة ؟

— واحدة من اثنين ، إما أن تثق فى ذمتى أو لا تثق .

وارتج على حفنى وأصبح فى موقف لا خيار فيه ، إن قال له لا أثق فى ذمتك فقد الأمل فى السلفة وربما فقد حياته هو أيضا بعد ذلك ، وإن قال أثق فمعنى ذلك أنه باع نفسه جميعا إلى ذلك الرجل المتوحش وأصبح لا يملك من أمر نفسه شيئا .. قضاء أخف من قضاء .. أبيع نفسى خير من أن أفقد ابنى وحياتى ..

— يا سلام يا سعادة البيه ! وهل يستطيع مثلى ألا يثق فى مثلك ؟

وكتبت الأوراق وأخذ المبلغ وأجريت العملية لمحروس ونجحت ، وأفاق حفنى إلى الكارثة التى حلت به .

لم تمر أيام حتى وجد عند وردة طلبا من رفعت أن يذهب إليه فى باكر الصباح . ومعنى هذا أن يخسر دورا من أدواره فى الخط فاحتسب دوره عند الله وذهب إلى رفعت .

— اسمع يا عم حفنى ، سيارتك تلزمنى فى توصيلة .

— أنت تأمر يا رفعت بك .. هل ستركب أنت سيارتى المسكينة هذه ؟

— لا .. أنا عندى سيارتى .. هذه توصيلة إلى القاهرة سيكون

معك فيها عثمان أبو سعيد .

— أمرك .

— كم تأخذ فى التوصيلة ؟

— ثلاثة جنيهات من النفر ، يعنى خمسة عشر جنيها .

— أنا سأعطيك خمسين جنيها .

— ماذا ؟

— ما سمعت .

— لماذا ؟؟

— أنا حر يا أخى ، أتصرف فى مالى كيف أشاء .

— هيه !

وفهم حفنى الوضع تماما ، فقد كان يسمع أن عثمان من الذين يعملون فى تهريب المخدرات لرفعت بك ، والآن تحقق له ما سمع ولكنه اضطر أن يتظاهر بأنه لم يفهم .

وقد كانت كل خشيته أن يتكرر هذا الأمر وهو لا يريد أن تسوء سمعته عند رجال المرور . فإنهم يعرفونه ، وما يعرفونه عنه يجعله نظيفا عندهم حسن السمعة .

خطر له خاطر .

— رفعت بك .

— هيه .. ماذا ؟

— أليس عندك شخص آخر غير عثمان أبو سعيد .

— وعثمان ما له ؟

— رجال المرور لا يحبونه ، وسيارتى أول مرة تقوم بهذه العملية .

— ما هى العملية ؟

— التى يقوم بها عثمان .

فضحك رفعت ملء شدقيه وهو يقول :

— البلد هذا لا يستخفى فيه شىء .. وهو كذلك ! سأعطيك فى كل مرة شخصا جديدا .

— أمرى إلى الله .

وقام حفنى بعملية نقل المخدرات عدة مرات وهو لاقف الأنفاس يملأ الرعب جانبيه ، واثقا أنه لو امتنع فإن رفعت سيغتصب منه السيارة وستقفل أمامه كل سبل الحياة .

كان أحيانا يذهب إلى القاهرة بريئا ويعود حاملا تهمته معه ، وأحيانا يخرج من المركز وبلواه فى السيارة .

وفى مرة أعقبت القبض على رجال رفعت ، فوجىء برجال المرور يوقفون سيارته ويجرون بها تفتيشا دقيقا ، ولحسن حظه كانت السيارة بريئة من المخدرات وكان معه فيها توفيق عبد الباقى .

وقد تولى الرجلين ذعر من التفتيش رغم أنهما كانا يعلمان أن ليس بالسيارة ما يدعو إلى الخوف .

وانتهى التفتيش وأكمل حفنى طريقه إلى القاهرة وظل صامتا طوال الطريق . وكلما حاول توفيق أن يحادثه أبى أن يرد عليه وكأنه غير موجود ، وكان فى صمته يقرأ ما حفظه من آيات القرآن يرددها لنفسه محاولا بكل الجهد أن يستعيد بها إلى نفسه بعض الطمأنينة ، حتى إذا بلغت السيارة مشارف القاهرة قال توفيق :

ــ نذهب إلى العنوان الذى معنا .

وانفجرت ثورة حفنى :

ــ هل جننت ؟ وحق كتاب الله المنزل لن يرانى الله أحمل هذه المصائب مرة أخرى أبدا .

ــ ورفعت بك ؟

ــ أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .. الموت أحسن من السجن .

ــ وماذا أنت فاعل الآن ؟

ــ سترى .

وراح حفنى يدور فى شوارع القاهرة وتوفيق لا يدرى مصيره ، حتى بلغت السيارة مقام السيدة نفيسة ونزل حفنى دون أن يدعو

توفيق للنزول معه . ودخل إلى المسجد وتوضأ وراح يصلى أمام المقام والدموع فى عينيه ، حتى إذا بلغت نفسه بعض الهدوء قام إلى سيارته ولحق به توفيق وذهب إلى سيدنا الحسين وراح يصلى ، حتى إذا اكتفى قام إلى سيارته ولحق به توفيق ذاهلا وذهب إلى مقام السيدة زينب وراح يصلى أمام المقام والدموع ما تزال تتوالى من عينيه وراح لونه يسترد بعضا من طبيعته . ثم قام إلى السيارة وركب هو وتوفيق فلم يقف إلا عند رفعت .

— رفعت بك .

— خير .

— أنت أخذت منى هذه السيارة بعقد لا حق لك فيه . أنا لا أريدها ولن أعمل معك بعد اليوم أبدا .

— هل جننت يا ولد ؟

— أنا لن أناقش ، هذا عهد قطعته بينى وبين الله وأشهدت عليه سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة . ومفاتيح السيارة فيها والسلام عليكم ورحمة الله .

واستدار واتجه إلى الخروج ، وراح رفعت يناديه فلم يلتفت إليه .

وكان رفعت جالسا مع وجدى الهن أحد كبار مساعديه ، وقال وجدى :

ـــ ماذا سنفعل الآن ؟

ـــ ما الذى حصل ؟

ـــ لا يهم ، الذى حصل سنعرفه من توفيق ، إنما ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـــ نرسل السيارة فورا لتأتى بالبضاعة ، المحامى الذى أتيت به من القاهرة يحتاج إلى مبالغ كبيرة .

ـــ نرسل سيارة أخرى .

ـــ بل هذه .

ـــ كيف ؟

ـــ أولا هذه عند المرور ليست سيارتى ، وثانيا لن يفتش المرور سيارة واحدة مرتين فى اليوم .

ـــ والله معقول .

ـــ من هنا من السائقين ؟

ـــ صابر الملوانى .

ـــ أرسل إليه .

* * *

خرج حفنى من بيت رفعت إلى منصور وقص عليه القصة جميعا . واستوعبها منصور كل الاستيعاب . ودون مقدمات

ـــ قم بنا .

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى المركز .

ـــ لماذا ؟

ـــ أنت فى موقف فى غاية الحرج ، فلا بد من كتابة محضر بكل هذا الذى قلته الآن .

ـــ إذا فعلت أكون قد ضمنت الآخرة .. سيقتلنى رفعت حتما .

ـــ أنت واهم . أولا .. رجال رفعت كلهم فى السجن . ثانيا هو الآن سيرسل سيارتك إن لم يكن أرسلها فعلا لتأتى بالمخدرات معتمدا أنه سيقول إذا سئل إنها سيارتك وليست سيارته . فإن لم تسبق أنت بعمل محضر فالتهمة ستكون ضدك وضد سيارتك .

ـــ ولكنه اشتراها .

ـــ هل معك عقد البيع ؟

ـــ كتبته من صورة واحدة .

ـــ هذه الصورة لن يظهرها .. هيا لا تضع الوقت .

ـــ هيا .. أنا تحت أمرك .

وذهبا إلى المأمور مباشرة ، وخرجت قوة إلى بيت رفعت ولحق بها المأمور ومعه إذن نيابة بالتفتيش عن المخدرات . وفوجئ رفعت

بالقوة التى لم تكد تلتف حوله حتى وجد المأمور معها ، وبدأ التفتيش وأمر المأمور بفتح الخزانة ولم يكن عجيبا أن وجد المأمور عقد شراء سيارة حفنى بين أوراق الخزانة .. وإن كان لم يجد مخدرات .

وكانت السيارة قد ذهبت فعلا إلى القاهرة ، وما كان أيسر على المأمور أن يعطى أمرا بتفتيشها عند عودتها وتم العثور بها على المخدرات .

وقال رفعت للنيابة :

ـــ هذه سيارة حفنى .

ـــ وعقد الشراء ؟

ـــ لقد كتبته لأضمن الدين الذى استلفه منى حين كان ابنه محتاجا لعملية ، ولكن الجميع يعلم أنه كان يستعمل السيارة على الخط ، فلو كنت اشتريتها لما كان ركبها .

ـــ ولكنه كان يعمل عندك أيضا . وهى الآن حين ضبطت بالمخدرات لم تكن معه . ما أقوالك ؟

ـــ أنا لا أعرف شيئا عن المخدرات ، ربما يكون صابر هو الذى قام بالعملية من تلقاء نفسه .

ـــ ألا يعمل صابر سائقا عندك ؟

صمت .

— أجب .

— يعمل عندى أحيانا ولكننى لم أكلفه بهذه المهمة .

وبعد استكمال التحقيق أفرج عن رفعت بكفالة قدرها ألف جنيه ، وأودع صابر السجن لاستكمال التحقيق .

٩

كان منصور فى مكتبه حين دخل إليه راضى يستأذن فى دخول لطفى عامر .

— من لطفى عامر ؟

— أحد رجال رفعت .

— ماذا كان يعمل عنده ؟

— خادما بالبيت

— وماذا يريد ؟

— أناديه لك .

— دعه يدخل .

— أمرك .

ودخل لطفى عامر .. شاب طيب السمات ذكى النظرة تغشى وجهه كآبة وهلع ، قال وهو يجلس .

— الحقنى يا سعادة البك :

— خير يا لطفى ؟

ـــ أنا أعمل خادما عند رفعت بك منذ عشر سنوات ، وأنت تعرف أننا فى العمل عنده لسنا أحرارا فأبى مزارع عنده ، وقد رآنى وكان عمرى ست عشرة سنة وماشى فى السابعة عشرة وقال لأبى : أريد لطفى أن يعمل عندى . وكانت الكلمة العابرة كافية للتنفيذ .

جمعت ملابسى وذهبت معه إلى المركز ، له عمارة بشارع الشنوانى بها دور تحت الأرض كله حجرات والدور له منافعه . أعطانى حجرة من هذه الحجرات وكتب معى عقدا جعل أبى يوقع عليه ، لأنى لم أكن قد بلغت السن القانونية بعد . ووقع أبى ورأيت المر يا منصور بك .. سهر إلى وش الصبح وتعب .. المرتب عشرة جنيهات آخذها شهرا ولا أخذها شهرا آخر ، وكلما فاتحته يقول: ألا يكفيك أنك تسكن فى حجرة ولا تدفع أجرا . أتعرف كم إيجار هذه الحجرة ؟ المهم تزوجت يا منصور بك بعد خمس سنوات وأتيت بزوجتى إلى الغرفة وأنجبنا ابنا وابنة .. الولد لا بد أن يذهب إلى المدرسة ، فإذا به يقول : مدرسة ! ألم يبق إلا ابنك ليذهب إلى المدرسة ؟.. أوجعتنى الكلمة يا منصور بك .. أكثير أن أعلم ابنى مثل خلق الله ؟ وكان الولد واقفا بجانبى وتمنيت لو أن الأرض ابتلعتنى .. فكل أب يا منصور بك يحب أن يكون محترما أمام ابنه . ولم يكتف رفعت بهذا بل أكمل : اذهب علمه صنعة أو انتظر عليه

حتى يكبر وهاته هنا يخدم وأنا أقبله وأمرى لله .

— ما الذى جعلك تخبره عن مدرسة ابنك ؟

— أردت سلفة عشرين جنيها أحضر للولد ملابس يذهب بها إلى المدرسة .

— هيه .. وبعد ؟

— سكت .. أنا كنت حزينا كل الحزن . لقد تحملت منه الضرب والإهانة والسهر وعدم النوم فى الليل أو فى النهار ، وكأنى آلة ولست آدميا مثل كل الناس ، وبعد هذا كله يهيننى هذه الإهانة أمام ابنى .

— ماذا فعلت ؟

— روحت ولم أستطع حتى تناول الغداء ، إنما أرسلت زوجتى إلى زوجته تخبرها أننا لن نعمل عندها بعد ذلك .

— وماذا قالت لها ؟

— قالت : الآن طبعا .. ما داموا قبضوا على رجاله . طيب أخلوا الحجرة . قالت لها وهيبة امرأتى : أى حجرة ؟ قالت لها : الحجرة التى تنامون فيها . قالت وهيبة : ولكننا ندفع إيجارها . أكنا نقبل عشرة جنيهات مرتبا لو لم يكن الإيجار محسوبا .. قالت الست : هل معكم إيصال ؟ قالت وهيبة : طبعا لا . قالت الست : ولكن نحن

لدينا عقد إيجار .. اشربوا من البحر إذن أو عضوا فى الأرض .

ـــ وماذا قالت وهيبة ؟

ـــ وماذا يمكن أن تقول ؟ قالت : كتر خيرك يا ست هانم ، هذه آخرة خدمتنا السنوات الطوال . ولم تسكت وإنما لعنت أباها وهى تقول : أكنتم تعملون مجانا ، امشى اخرجى من بيتى ..

قال منصور :

ـــ والآن ماذا حدث ؟

ـــ حدث أننى أصبحت أمدح فيك فى كل مكان وصحت معك : لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله . وعرف هو هذا ، وفوجئت يا سعادة البك بهذا الإعلان قادما .

ـــ ما هذا ؟ .. إعلان طرد .. مبلغ كم ؟ ألف ومائتى جنيه قيمة إيجار متأخر .. هيه .

ـــ ما رأيك يا سعادة البيك ؟

ـــ رأيى أنه يملك أن يطردك .

ـــ ومعى أربعة آخرون تركوا خدمته ويسكنون معى فى البدروم . وجاءت لهم إعلانات مثل هذه .

ـــ أكلها بمبالغ كبيرة مثل هذه ؟

ـــ المبالغ تتراوح .

— توكل على الله .

— هل له حق فى هذه المطالبة ؟

— من جهة له حق فلا شك فى ذلك .

— إذن ؟

— هات زملاءك وتعالوا إلى مكتبى اليوم بعد الظهر .

— جميعا .

— جميعا ومعكم الإعلانات .

وجاءوا وكان فى انتظارهم منصور وأمين عبد الصادق . وجمع منصور الإعلانات فوجد المبالغ المطلوبة ثلاثة آلاف وأربعمائة جنيه ، فدق الجرس وجاء راضى .

فقال له فى هدوء :

— خذ هذه الإعلانات وهذا المبلغ ثلاثة آلاف وأربعمائة جنيه تدفعه غدا فى المحكمة إيداع لحساب رفعت بموجب هذه الإعلانات .

— أمرك .

— مع السلامة .

ثم نظر إلى زملاء لطفى وقال لهم : هذه المبالغ منى ومن الأستاذ أمين هدية لكم ، وعليكم بعد ذلك أن تدفعوا الإيجار .

ـــ ماذا نقول لك أو للأستاذ أمين ؟

ـــ تعرفون جميعا ماذا تقولون .

ـــ لقد رأينا العذاب ألوانا .. ماذا نقول لك ؟

ـــ ما نقوله جميعا .

ـــ لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله .

١٠

أكرم الأشمونى شاب فى مقتبل العمر يملك عشرة أفدنة فى الناحية غير بيت كامل فى المركز . مات عنه أبوه وهو فى السنة الثالثة من كلية التجارة فأكمل تعليمه وتخرج . وكان وهو فى الكلية معجبا بزميلة له نهى سعدون . وكان طوال سنوات الدراسة يحاول أن يتقرب منها هذا التقرب المعهود بين أبناء الجامعة .. كراسة المحاضرات .. المذاكرة .. الإعادة على المحاضرة .. إلى غير هذا . وكانت تتقبل منه هذه المحاولات فى نفس راضية ، فقد كان مرتب العقل لا يرتكب الصغائر التى يرتكبها الشباب فى هذه السن من التظاهر بما ليس فيهم ، أو ادعاء ما ليس لهم . وكان منتصب القامة فى غير تكبر ، يحترم نفسه فى غير تعاظم . وكانت تشهد منه إذا لم تعطه كل اهتمامها كبرياء الأصيل ، حتى لتضطر أن تعتذر إليه مدركة ما وقعت فيه من خطأ .

وكان أكرم ونهى ينجحان كل عام نجاحا معقولا لا هو فى الحضيض ولا هو فى القمة ، حتى إذا بلغا البكالوريوس ومر من العام ثلاثة أشهر قال لها :

ـــ الآن وجب الكلام .

ـــ أفهمك .

ـــ والدك موظف بوزارة المواصلات بدرجة مدير عام .

ـــ أنت تعرف أسرتى كلها وزرتنا كثيرا .

ـــ الذى أقوله مقدمة من المقدمات ، فى أغلب أمرها يكون فيها أشياء معروفة .

ـــ إذن أكمل .

ـــ إذا خطبتك منه سيقع فى حيرة ما بعدها حيرة . وأنا والحمد لله لست غنيا ولكننى مستور .

ـــ وماذا تريد ؟

ـــ أريد أن أكلم عمى سعدون بك دون أن أبث فى نفسى أى نوع من الحيرة .

ـــ وكيف يكون ذلك ؟

قال باسما :

ـــ هذا الأمر لا دخل لك أنت فيه .

ـــ إنه أنا التى سأتزوج .

ـــ إن دورك قاصر على أن عمى سعدون سيسألك رأيك وتقولين موافقة .

وفى سخرية فرحانة قالت :

— يا سلام ! واثق من نفسك جدا حضرتك .

وفى نفس اللهجة الفرحة يقول لها :

— واثق من صلتنا الشريفة العفيفة على مدى أربع سنوات .

— وكيف لك أن تثق ؟

— إعجاب ومدارسة عرفتك فيها وعرفتنى ، ورضيت أن أكون زميل مذاكرتك وممشاك وصندوق أخبارك .

ما تضيقين به وما تسعدين ، وفرحت أنا أن أكون منك هذا الإنسان . ومعنى فرحى أن إعجابى تحول إلى حب . حب جارف عفيف ، حرصت كما حرصت أنت أن يظل عفيفا ، لأن كل منا كان يدخر الآخر للحياة جميعها وليس لمعرفة عابرة بالإنسان ، ثم تمضى كأنها لم تكن ولا تصبح إلا ذكرى هينة الشأن ضئيلة الأثر .

— والملخص؟

— إن سعدون بك أو نجيبة هانم . والغالب أن نجيبة هانم هى التى ستسألك : أتقبلين أكرم زميلك زوجا لك ؟

— هيه وماذا أقول أنا ؟

— والله أنت حرة . هناك ثلاث إجابات .

— لا رابع لها ؟

— لا رابع لها .

— ما هى الإجابات .

— نعم .

— يا سلام !

— وبهذه الإجابة تكونين صريحة واضحة منسجمة مع نفسك ، لأنك أنت التى قدمت أكرم هذا إليهم ، فمن الطبيعى أن تقبليه .

— معقول . والإجابة الثانية .

— التقليدية التى جرى عليها الغالبية العظمى من بنات حواء فى مثل هذه المواقف .

— ألا وهى ؟

— الرأى رأيكم يا ماما .

— معقول أيضا . والثالثة ؟

— ابتسامة مشرقة ، وهزة رأس خفيفة تفيد الموافقة . أيها ستختارين ؟

وأغرقت نهى فى الضحك وقالت : أليست هناك إجابة رابعة محتملة ؟

— مطلقا .

— بل هناك .

ـــ مثل ماذا ؟

قالت وهى تضحك ملء قلبها :

ـــ مثل أبدا يا ماما ، كله إلا هذا .. أكرم زميل فقط . أما إذا أردت الزواج فإننى أريد شخصا غنيا واسع الثراء . أما هذا الشاب المغرور الذى يتصور أننى سأوافق على زواجه بمجرد أن يتفضل هو بطلب يدى .. أبدا يا ماما أبدا .

ـــ إذا قلت هذا الكلام بهذا الوجه الصبيح المتطلق الفرح ، فإنه يعنى موافقة أقوى من الإجابات الثلاث التى تصورتها أنا .

ـــ مغرور !

ـــ محب .

وكسا وجهها الجد وهى تقول :

ـــ هل الحب فى داخلك صادق بقدر صدقه فى وجهك ؟

ـــ أتشكين ؟

ـــ أحب أن أسمع همسات نفسك بدلا من أن أحسها .

ـــ إذن فحبى لك أكبر من حبك لى .

ـــ ليس للحب موازين . هناك حب أو لا حب .

ـــ لم أسألك إن كنت صادقة أم لا .

ـــ اكتفيت أنت بالنظر والشعور ، وأردت أنا أن أشرك السمع

معهما .

ـــ الكلام سهل ، ولكن الأيام فى الإثبات أقوى .

والتقت نظرتان يعرفهما الشباب الطاهر منذ بدء الخليقة .

وقالت نهى :

ـــ هل أطلب لك موعدا من أبى ؟

ـــ ولا هذا .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنك لو طلبت الموعد تكونين قد أعلنت الموافقة قبل الطلب ، وهذا ما لا أرضاه لك .

ـــ إذن ؟

ـــ انتظرينى أنت اليوم فى الساعة السادسة ، دون أن يدرى أحد فى المنزل أنك تنتظريننى .

ـــ وتأتى دون موعد .

ـــ وكأنى سأذاكر معك .

ـــ فإذا لم تجد أبى ؟

ـــ فسأجده غدا .. أنا لا أريد أن يشعر بالحيرة مطلقا .

ـــ فيم الحيرة ؟

ـــ قد يجدنى مقبولا وتقف موارده المالية فى الآونة الحاضرة دون

الاستجابة لى . اتركى الأمر لى .

— ما ترى .

— إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

* * *

وجد سعدون بك ونجيبة هانم .

— طبعا أنا غير محتاج أن أقدم نفسى .

وقال سعدون :

— أنت أصبحت مثل ابننا .

— حالتى المالية حسنة ، فأنا أملك عشرة أفدنة وأملك بيتا فى مركز المهدية . سأبيع البيت وأشترى شقة وأؤثثها فليس عليكم أى أعباء .

— فيم تتكلم ؟

— أنا قدمت هذا الحديث لأننى أعرف العقبات التى تقف أمام الأب حين تخطب ابنته .

وأغرق الأب والأم فى الضحك ، وتمت الخطبة .

* * *

كان أكرم يظن أن الأمور ميسرة وليس أمامه أية عوائق تحول دون

بيع البيت . بل إنه حين ذهب إلى المركز وجد ما يشجعه على هذا الظن ، فقد ذهب إلى قريبه الحاج شعبان تاجر الغلال .

— يا عم الحاج شعبان .

— ألف نعم يا أكرم ، وأنت فعلا أكرم .

— كان جرى بيننا حديث سريع عن بيتنا هنا .

— نعم ، أنا أرى أنك غير محتاج إليه .

— أنا كنت مبقيا عليه لأستعين بثمنه على زواجى وشراء شقة فى القاهرة ، وأقيم بها أنا وزوجتى .

— ونعم الرأى .

— وأنا فعلا خطبت .

— فعلا ؟ ألف مبروك دون أن تقول لى .

— إنها زميلتى فى الكلية ، والأمر لم يعد الاتفاق المبدئى أما فى الخطوبة الرسمية فأنت الذى ستقوم بها إن شاء الله طبعا .

— على بركة الله .

— الآن بيع البيت أصبح ضرورة .

— كن تاجرا ولا تقل هذا .

— أنا أقوله لك أنت فقط .

— اسمع يا بنى كأنك لم تكلمنى ، وأنا سأعرض البيع ، وإذا لم

تعجبنى الأسعار سيكون لى رأى آخر .

ــ أترك لك فرصة .

ــ أسبوع .

* * *

ــ خيرا يا عم الحاج شعبان ؟

ــ كل الخير .. أحسن سعر وصلت إليه خمسة وثلاثين ألف جنيه ، وأنا أرى أنه سعر مناسب وإلا كنت اشتريته أنا .

ــ توكلنا على الله .

* * *

وفجأة بدأت الدوامة .

* * *

قال أكرم لمنصور وأمين :

ــ اتضح أن البيت ملاصق لعمارة يملكها رفعت ويأبى جشعة إلا أن يشترى البيت أيضا .

سأل منصور :

ــ ما البأس ؟ إنه سيشترى بالشفعة فليدفع الثمن المعروض .

ــ هنا المصيبه ، يأبى أن يدفع أكثر من عشرة آلاف جنيه .

سأل أمين : والمشترون الآخرون ؟

ـــ فروا جميعا . هددهم بالقتل إن رفع واحد منهم السعر عن عشرة آلاف جنيه ، والأرض هى الأخرى وسط أرضه وأوقف عنها الشراء تماما .

ـــ لا إلـٰه إلا الله .

ـــ ماذا أفعل ؟

قال أمين :

ـــ لا تفعل شيئا ، توكل على اللهِ .

والتفت إلى منصور وقال له :

ـــ أيلزمك هذا البيت يا أستاذ منصور ؟

ـــ أنا مستعد أن أشتريه ، ولن تكون على خسارة . بل أنا محتاج إليه . وما ضاع مال أنفق فى شراء بيت وفى موقع كهذا . ثم نادى :

ـــ يا راضى .

ـــ وحين جاء راضى قال أمين :

ـــ اذهب مع الأستاذ أكرم واكتبا عقد بيع البيت . سيعطيك هو حدوده وأنا فى انتظاركما .

قال أكرم ودمعات فرح تسيل على خديه :

ـــ ما هذا الذى تصنعه يا أستاذ أمين ؟

ـــ ماذا ؟ مال مدفوع فى ثمن بيت .

ــ وكيف صدقت ما أقول ؟

ــ أنا أعرف البيت وأعرف ثمنه . أنسيت أننا أسرة تجار .. توكل على الله ولا تضع الوقت .

ــ ماذا أقول لك ؟

ــ أنت تعرف ما تقول .

ــ لا إلٰه إلا الله ، محمد رسول الله .

١١

المحكمة منعقدة ومنصور وأمين جالسان فى مقاعد المحامين ، وقضايا تبلغ اثنتى عشرة قضية مرفوعة ضد رفعت الربيعى ومنه .

منصور وأمين يلقى كل منهما نظرة على القضايا التى سيترافع فيها .. ونودى على القضية الأولى ساميه نشأت الربيعى .

رفعت الربيعى .

وقال منصور :

ـــ حاضر عن المدعية يا حضرة القاضى .

وارتفع صوت عميق الأغوار من آخر قاعة المحكمة .

ـــ رفعت الربيعى حاضر عن نفسه يا حضرة القاضى .

وتقدم رفعت إلى المنصة فى خطوات ثابتة ، حتى إذا أصبح أمام القاضى وقال :

ـــ أتسمح لى يا حضرة القاضى ؟

ـــ أنت مدعى عليك . لا بد أن يتكلم المدعى أولا .

ـــ ربما أقول شيئا يغنيه عن الكلام .

ـــ أتسمح يا أستاذ منصور ؟

ـــ لا مانع يا حضرة القاضى .

وتكلم رفعت الربيعى :

ـــ كل القضايا المرفوعة ضدى من السيدة سامية نشأت أو من غيرها ، أنا معترف بحق المدعين فيها بلا استثناء . وكل القضايا المرفوعة ضدها أو ضد آخرين أنا متنازل عنها . هذا إجمال أرجو أن يثبت فى محضر الجلسة ، ثم أفصل الإجمال مع الأساتذة المحامين بتوقيع منى على ما يطلبون التوقيع عليه . ولا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله .

وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا .

وعنت الوجوه للحى القيوم ، وكأنما أصبحت قلوب الجميع قلبا واحدا يردد فى إيمان عميق ووجيب نورانى :

لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله .

تمت

الاستاذ ثروت اباظة

- هارب من الايام
- جذور فى الهواء
- امواج ولا شاطىء
- الغفران

وستظهر رواياته تباعا

رقم الإيداع ٣١٧٥ / ١٩٨٩
الترقيم الدولى ٠ ــ ٠٤٩٥ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

736

الثمن ١٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه